العـدد الأول
أبـريل 2021

سُبُل

مجلة دورية تصدر
عن مؤسسة رواق

ملـف هـذا الـعـدد
"المثقفون والسُلطة"

كل عام وأنتم بخير

تهنئة من فريق مجلة سُبُل
بمناسبة شهر رمضان الكريم

الــفــهــرس

افتتاحية..3
المثقفون والسلطة الفكرية: من الأئمة إلى الإنفلوينسرز.......................5
المثقفون وثورة يناير.. دروس من الماضي للمستقبل 10
النخبة الثقافية وثورة يناير.. أوان عودة المثقفين للشارع.....................15
الثقافة والسلطة في مصر الحديثة.. الحرب الصامتة.............................21
البتكوين وإعادة تعريف المال في عصر الحداثة....................................27
عقد على ثورة يناير: انتظار ما لن يأتي 35
زيف الصورة وإدمان الاستعراض...40
لا تفوت يوما دون كتابة..45
الاختيار: كيف تقتل الدراما ضحايا المذبحة مرة أخرى؟..........................49

رئـيـس الـتـحـريـر
مـحـمـد عـبــاس

هـيـئـة الـتـحـرير
عــمــار فــايـــد
وائـــل صـــلاح
خـالـد نـور الـديـن
عبد الوهاب محمـد
مـحـمـود المـبـارك

كُتَّاب العدد

عمار فايد

طالب دكتوراه قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة اسطنبول أيدن تتركز أبحاثه على سياسات الشرق الأوسط.

عبدالوهاب محمد

باحث ماجستير في العلوم السياسية مهتم بالفلسفة السياسية ودراسات ما بعد الاستعمار

أحمد مولانا

باحث في الشؤون السياسية والإستراتيجية

عبادة البغدادي

منتج ومخرج، حاصل على ماجستير سينما من جامعة اسطنبول. معيد سابق بكلية الإعلام جامعة الأزهر

محمود العناني

صحفي ومنتج وثائقي

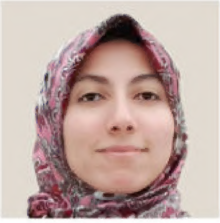

كريمة الصيرفي

باحثة في التربية والتعليم المنزلي

يوسف الدموكي

كاتب

حسن إمام

باحث في مجال التكنولوجيا وعلاقتها بالمجتمع

محمد عماشة

باحث في علم الاجتماع

إبراهيم هلال

باحث ومهتم بالفلسفة والأدب والاجتماع والسينما وصانع أفلام قصيرة

افتتاحية

لماذا سُبُل؟

عمار فايد

بينما ينقضي عقدُ الثورات العربية الأول، يبدو واضحا أن الشعوب العربية كي تستكمل مسيرتها نحو الحرية والعدالة والكرامة، لا يكفي أن تثبت جدارتها في ميادين التظاهر، ولكن أيضا في عالم الأفكار. تعلمنا في هذا العقد الطويل أن التغيير يصنعه تجديد فكري مُلهِم وليس فقط خطب حماسية، ويحميه وعي الجماهير وليس فقط أصواتها الهادرة في الميادين. كي تكون الحرية كاملة، وممكنة، يجب أن تشمل تحرير الأجساد من قضبان السجان، وتحرير الإرادة من قيود تحققها، وتحرير الوعي من ثقافة الخوف والضعف والتبعية والاستبداد.

حملتْ لنا هذه السنوات العشر أجوبة قليلة، وأسئلة كثيرة ما زالت تنتظر من يتصدى لها، ويجتهد في تلمس سُبُل جَلائِها وتِبيانِها للمشغولين بتحقيق مستقبل أفضل لأوطانهم. أسئلة متنوعة بقدر تنوع جبهات العمل، وبقدر تعدد متطلبات السعي للتغير، بما يشمل حاجتنا لفهم واقعنا الاجتماعي والسياسي، مشكلاتنا الاقتصادية والأخلاقية، والتحديات النابعة من موقعنا على الخريطة، والناتجة عن سنن التدافع، والتعارف، بيننا وبين الأمم والشعوب في عالمنا الإنساني. لذلك، لا يقتصر البحث عن الإجابات على شؤون السياسة فحسب، بل يشمل الثقافة، والتربية، والفن، والإعلام. وهو بحثٌ يتطلب طول نظر في التاريخ، وتدبرا ثاقبا للحاضر، واستشرافا بصيرا للمستقبل.

تطمح هذه الصفحات إلى الإسهام في هذا النضال النبيل، بأن تكون ملتقى أقلام تكابد تحديات الواقع، وساحة جدال بين أفكار تسعى للاستجابة لمتطلبات اللحظة التاريخية التي تمر بها الشعوب العربية. لا تدعو هذه الصفحات إلى سبيل واحد، بل إلى "سُبُل" متنوعة، وبدائل تستحق الاختبار، وأفكار تتطور وتتراكم إلى أن يشرق من رحمها خطاب مُلهم، وخطة هادية، وطريق مستقيم إلى المستقبل الموعود الذي تسعى إليه أمتنا. وتسعى "سُبُل" أيضا إلى تعزيز التواصل والتشبيك بين المهمومين بفريضة التفكير، الذين يدفعهم قلق عقولهم وأرواحهم إلى محاولة التعبير الصادق عن هموم الشعوب، ليس باعتبارهم نخبا مثقفة قادرة على التنظير، ولكن وهذا هو الأهم، باعتبارهم متفاعلين لا يقتصر اتصالهم بالواقع على النظر، بل يكابدون مشاقه وتغذي حماستهم حرارته. ومن ثم، يلمسون تحديات الواقع ومتطلباته، ويختبرون بأنفسهم آلام المخاض الطويل.

ليست هذه مهمة متواضعة، لكنّ هذا هو الواجب الذي لا مفر من التصدي له؛ وهي مهمة على قدر الحُلم الذي مسّ قلوبنا وأسر أرواحنا، وامتلك عقولنا. وإنّ ما نرجوه، هو أن ينظرَ اللّه إلى هذه الأقلام وهي تكابد مشاق التعلم والعمل، فيعلمها ما لم تكن تعلم؛ وتخطو متحدية بواعث اليأس ومبررات الاستسلام. ينظرَ إلى جُهد أصحابها واجتهادهم، فيأخذ بأيديهم ويعلمُهم ما لم يعلموا، ويهديهم إلى سُبُله في الدنيا والآخرة، ويقبلهم مع المحسنين. «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ»(69، العنكبوت).

ملف العدد

"المثقفون والسلطة"

المثقفون والسلطة الفكرية
من الأئمة إلى الإنفلوينسرز
◄ محمد عماشة

المثقفون وثورة يناير
دروس من الماضي للمستقبل
◄ أحمد مولانا

النخبة الثقافية وثورة يناير
أوان عودة المثقفين للشارع
◄ إبراهيم هلال

الثقافة والسلطة في
مصر الحديثة.. الحرب الصامتة
◄ عبدالوهاب محمد

المثقفون والسلطة الفكرية:
من الأئـمـة إلى الإنـفـلـويـنـسرز

محمد عماشة

في العـام 2014، عـاد صديـق مصـري مغتـرب إلـى مصـر. وضمـن حديثـي معـه، أخبرنـي أنـه لاحـظ ظهـور نمـط جديـد للعيـش وسـط أصدقائـه الشـباب، ألا وهـو "العمـق". كان صديقـي يقصـد أولئـك الذيـن يثيـرون أسـئلة وجوديـة، ويتحدثـون بمصطلحـات مقعـرة، ويحيلـون إلـى فلاسـفة وعلمـاء فـي معـرض حديثهـم، ويَشـعرون أن العامـة لا تفهـم مـا يقولون.يمكـن اعتبار هذا العـرض الكاريكاتيري للشـخصية "العميقـة" أحـد أشـكال تطـور شـخصية "المثقـف"، ولكـن فـي جيـل "السوشـيال ميديا". لـ"عميقين" أو "المثقفين" سـلطة فكريـة فـي المجتمعـات، إذ هـم أحد أهم روافـد تشـكيل الفكـر بقـدر اقتنـاع النـاس بأنهم أهـلٌ للثقـة والاتبـاع. ولكـن، متـي وكيـف ظهـر "المثقفـون"؟ بـل مـن هـم "المثقفـون" أصـلًا؟ وما هو معيار الثقة في سلطتهم الفكرية؟

المثقفون كهوية

وُجِـد أصحـاب الفكـر والمعرفـة فـي كل عصـر ومِصـر، وتنوعـت هوياتهـم التـي يكتسـبون بهـا سـلطتهم الفكريـة. فقـد كانـت هويـة بعـض أصحـاب الفكـر فـي الحضـارة اليونانيـة القديمـة الفيلسـوف، وفـي الحضـارة الإسـلامية العالـم (الشـرعي)، وفـي الحضـارة الهندوسية البراهمة، وهلم جرا.

أمـا المثقـف فهويـة حديثـة، يعيـد الدارسـون تبلورهـا الأول بهـذا الإسم إلـى فرنسـا نهايات القـرن التاسـع عشـر . والقصـة أن الجيـش الفرنسـي قـد اتهـم أحـد ضباطـه (دريفـوس) بالخيانـة العظمـى زورًا، لا لشـيء إلا أنـه يهـودي. وأمـام المحاكمـة الهزلية التي تعرض لهـا دريفـوس، وقـف جمـع مِـن المفكريـن مدافعيـن عـن العدالـة فـي التعامـل مع الرجـل. سُمي هؤلاء المفكرون بـ"المثقفين".[1]

[1] Robert J. Brym, “Intellectuals, Sociology Of,” in International Encyclopedia of the Social & Behavioral Sciences (Elsevier, 2015), 277–82, https://doi.org/10.1016/B978-0-08-097086-8.32078-5.

ورغم أن تسميتهم بهذا الاسم كانت بهدف تسفيه معرفتهم بالسياسة، إلا أن هذا المصطلح صار يعبر عن مكانة اجتماعية لأصحاب الفكر، خاصة هؤلاء الأحرار الذين يصدعون بالحق أمام السلطة. أما في المجتمعات المسلمة، فقد ظهر المثقفون بعد إدخال نظم التعليم المدنية ضمن مشاريع التحديث، ليجاور وينافس المثقفون العلماءَ من أهل التعليم الديني وأصحاب السيادة الفكرية في المجتمعات المسلمة لقرون طويلة.

من هُم المثقفون؟

تنوعت تعريفات المثقفين بين دارسيهم، بين التضييق والتوسيع والتصنيف، بل والتأكيد على أهمية عدم التعريف. وقد دارت معظم محاولات تعريف المثقفين حول ثلاث نقاط: علاقتهم بعالم الأفكار، والدين، والطبقات الاجتماعية. الشيء المحوري وشبه المتفق عليه في تعريف المثقفين هو اهتمامهم الرئيس بعالم الأفكار لا عالم المادة. فالأصل في معظمهم انصباب جلّ جهدهم في أمور مجردة عن الإنسان، أو المجتمع، أو الطبيعة أو الكون، سواء تمثل هذا في العلوم أو الفلسفة أو الفنون أو الدين.[2] ولعل "سيمور ليسبت" قد وسّع الإطار ليصبح أي أحد ينتج، أو ينشر، أو يمارس "الثقافة" واقع ضمن إطار المثقفين.[3] أمّا علاقة المثقفين بالدين، ففيها نقاش، إذ أن ظهور المثقفين صاحب عمليات العلمنة التي أتت بها رياح الحداثة الغربية، خاصة في فرنسا. ورغم وجاهة الطرح القائل بأن المثقفين نتاج حداثي (كما أسلفنا)، إلا أن كثيرين من دراسي المثقفين قد اعتبروا المثقفين شكلًا من أشكال أهل العلم الذين وُجدوا في كل زمان ومكان، وبالتالي اعتبروا علماء الدين من المثقفين. ولعل اعتقاد بعض الدارسين بالاختلاف الجذري بين أهل الفكر العلماني والفكر الديني هو ما دفعهم لإخراج علماء الدين من إطار البحث. أما أنا فاعتقد أن تفاعل الناس مع الأفكار فيه كثير من التشابه، كان هذا الفكر دينيًا أو علمانيًا.

أما علاقة المثقفين بالطبقات الاجتماعية فكانت من أكثر النقاشات رواجًا في أدبيات علم اجتماع المثقفين، لأهميته في الصراع اليساري-الرأسمالي. وقد انقسم الباحثون في طبيعة تلك العلاقة إلى ثلاث فرق.[4] فالأولى ترى أنه ليس للمثقفين انحياز طبقي، بل إنهم يعملون للصالح العام دون النظر إلى مصالحهم أو مصالح طبقاتهم. أما الثانية فترى أن كل طبقة اجتماعية تنتج مثقفيها، ولعل تعبير "المثقف العضوي" لـ"أنطونيو جرامشي" هو الأشهر في التأسيس والتعبير عن هذا الاتجاه. أما الاتجاه الثالث فيرى المثقفين كطبقة مستقلة، تنافح عن مصالحها كأي طبقة أخرى. ولعل الواقع يقول أن المثقفين لا يقعون ضمن تصنيف واحد من تلك الثلاثة، وأن الأمر يختلف باختلاف المثقف والسياق.

نستخدم في هذا المقال مصطلحات عديدة كالمثقفين، وأهل العلم، أو أهل الفكر، أو أصحاب السلطة الفكرية لتعبر عن نفس الظاهرة التي هي هلامية بطبعها.

[2] Edward shils, "Intellectuals," in International Encyclopedia of the Social Sciences, vol. 7 (New York: Macmillan & Free Press, 1968), 399-415.

[3] Seymour Martin Lipset, "American Intellectuals: Their Politics and Status," Daedalus 88, no. 3, (1959): 460–86.

[4] Charles Kurzman and Lynn Owens, "The Sociology of Intellectuals," Annual Review of Sociology 28, no. 1 (August 2002): 63–90, https://doi.org/10.1146/annurev.soc.28.110601.140745.

السلطة الفكرية
من "الأئمة" إلى "الإنفلوينسرز"

يومًا ما سألتني إحدى الصغيرات بانبهار عندما أخبرتها عن عملي كباحث قائلة: "يعني هتطلع على التليفزيون"؟ نمّ هذا السؤال عن تصور ضمني لأصحاب السلطة الفكرية: أولئك الذين "يطلعون على التلفزيون" لم يصلوا لهذه المرحلة إلا لمعرفتهم التي تؤهلهم للحديث و"الفتوى" في فنون شتى. لعل تلك الصغيرة لا تعرف أن الظهور على التلفاز أحيانًا هو من يصنع المثقف، لا العكس.

لسلطة أهل العلم أبعاد مختلفة غير تلك المتعلقة بالعلم ذاته. فكثرة التلاميذ في الماضي كانت ذات أهمية بالغة لتكريس سلطة أحد العلماء. بل إن مرجعية المدارس الفقهية الأربعة يرجعها البعض لكثرة طلاب الأئمة أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل. ومع تطور أدوات الطباعة، صار كتاب الجرائد والمجلات والكتب أصحاب السلطة الفكرية في المجتمعات.

ولعل شيوع المذياع والسينما والتلفاز أنشأت شكلًا جديدًا من أشكال السلطة الفكرية، التي لم تعد تعتمد فقط على الكلمات (التي هي عصب الفكر)، بل قد تتأتى قوتها من الصوت والصورة (كالغناء والتمثيل والتلحين وباقي الفنون) التي أمكن عرضها على نطاق واسع.

مع هذا التطور، اتسعت السلطة الفكرية أكثر لتشمل "الفنانين" غير المثقفين، كبعض الممثلين والمغنيين الذين لا يمتلكون مواهب فكرية

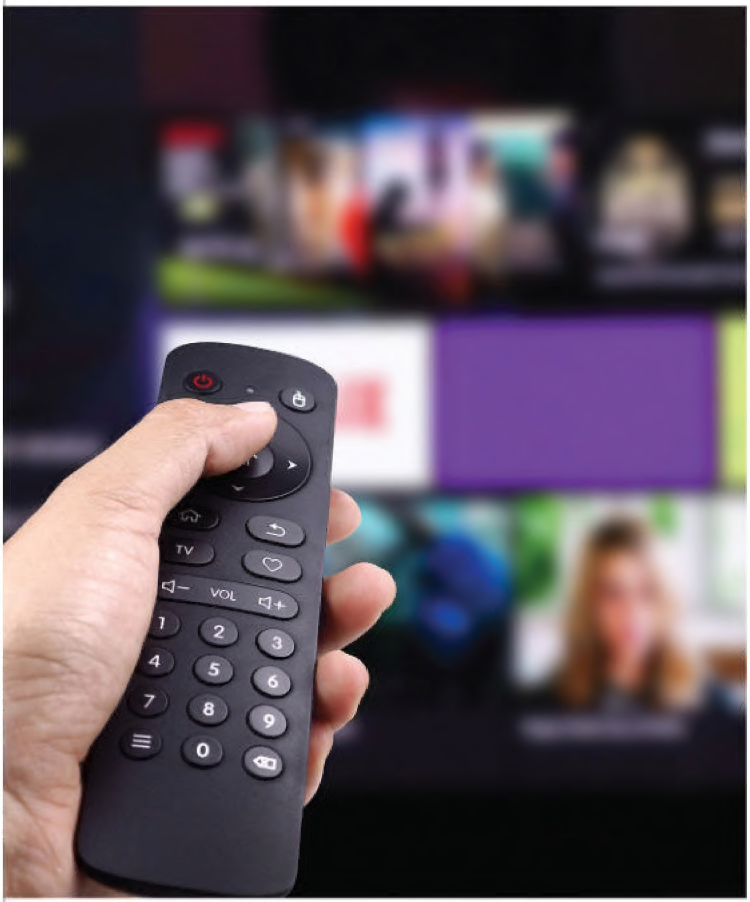

بقدر ما هي مواهب مادية (جسد جميل و صوت حسن مثلا).

ولم يعد فقط من الطبيعي أن يفتي بعض الممثلين والمغنين في السياسة والدين، بل وأن يصبح لهم أتباع يعتقدون بصحة ما يقولون لاعتقادهم بأن أولئك أصحاب المعرفة.

أما ظهور "السوشيال ميديا" فقد أتاح مساحة أكثر ديموقراطية واتساعًا بحيث يستطيع الكثير من خلالها حيازة سلطة فكرية. ولعل تسمية مشاهير السوشيال ميديا بالـ"مؤثرين" له دلالة. إذ السلطة الفكرية هي القدرة على التأثير في الناس، دون استخدام سلطة باطشة (سواء بالعنف، أو التهديد الاقتصادي، أو المعنوي). ولذا، صارت أعداد المتابعين والمشاهدات ذات دلالة على السلطة التي يمتلكها الناس في عالمنا اليوم.

الثقافة وحدها لا تكفي:
لمن تكون السلطة الفكرية؟

تبرز السلطة الفكرية لأحد المثقفين في أعداد من يعتبرون كلامه ذا وجاهة وحجّيّة. وللمفارقة، فليست عبقرية المثقف ولا براعته كفيلتان ببسط سلطته على الناس. ويفصل علم الاجتماع في أسباب نجاح المثقفين، غير تلك المتعلقة بألمعية الفكر وبراعة المفكر. من أهم تلك العوامل امتلاك المثقف وسائل تواصل لترويج ذاته وأفكاره مثل وسائل التواصل المباشرة (في الجامعات، النوادي، المسارح، المقاهي، الجوامع) أو المقروءة أو المسموعة أو المشاهدة كالتي سبق وتحدثنا عنها.[5] ضف إلى هذا أهمية مباركة المثقفين وتثمينهم لجهود أحدهم في صناعة المثقف وشهرته وترميزه، إذ تصبح أعماله موضع اهتمام ونقاش. ولعل شبكة العلاقات هنا مركزية، إذ يوضح "راندال كولنز" أن معظم الفلاسفة الذين لمع نجمهم على مر العصور، كانوا تلامذة لأساتذة كبار قبلهم يمدونهم "برأس مال ثقافي" يؤهلهم لاكتساب السلطة الفكرية.[6] ومن أسباب بزوغ نجم المثقفين أيضًا موضعة آرائهم بشكل يمس الناس ويماشي تطلعاتهم. وأخيرًا، فإن نجاح المثقف يعضَّد بمدى إبراز بعض الرمزيات التي ترفع من قدره، كتخرجه أو عمله في جامعة عريقة، أو نشر أعماله من دور نشر مرموقة، أو عرض أعماله في معارض عالمية، وهلم جرا. والشاهد أن كثيرًا من العباقرة والعلماء والفنانون لا يعلم عنهم إلا القليل، وأن ظهور العبقري والفنان أصلًا يحتاج إلى أسباب وظروف تتهيأ لهم كالتعليم والرعاية وقد لا تتهيأ لغيرهم ممن فيهم بذرة العبقرية والفن. فالظروف والمواهب والاجتهاد أمور تتفاعل معًا، وقد تكون الظروف أهم من الموهبة في صناعة المثقف، كما أن العكس صحيح.

لمن (يجب) أن تكون السلطة الفكرية؟

في معرض الحديث عن سياسات الخصوصية الجديدة لـ"واتساب"، أرسل لي صديق رسالة مفادها أنه "مفيش فايدة" ودلّل بمنشور على الفيسبوك.

[5] Scott Frickel and Neil Gross, “A General Theory of Scientific/Intellectual Movements,” American Sociological Review 70, no. 2 (2005): 204–32.

[6] Randall Collins, The Sociology of Philosophies: A Global Theory of Intellectual Change (Cambridge, Mass: Belknap Press of Harvard University Press, 1998).

ما أثار انتباهي هو أن كاتب هذا المنشور باحث في حقوق الإنسان، وليس معروفًا عنه أي تخصص في أمور التكنولوجيا أو الأمن المعلوماتي. من هنا بدأت أفكر كيف اعتبر صديقي هذا الباحث مرجع في هذا المجال، وتساءلت عمّن له الحق في أن نستمع له؟ وباختصار شديد، فإن إجابتي على هذا السؤال هي: أهل الاختصاص.

يجب التنبيه أن التدقيق في كل الأمور صعب، حتى على "المثقفين" والعلماء، وأن عقولنا تستسهل المعرفة خاصة في الأمور التي لا نر لها أثرًا مباشرًا (من نفع أو ضرر) في حياتنا. الإشكالية تكمن في اختلال البوصلة حينما يتعلق الأمر بأمر محوري في حياتنا، بحيث نعطي "المثقفين" سلطة لا يستحقونها، فيفتون في أمر لا يعرفونه، وندفع نحن الثمن. ولذا فإني لا أعترف بسلطة "المثقفين"، إذ هي كلمة تدخل فيها أصنافًا شديدة التنوع والاتساع. فقد يكون الفنان مثقفًا حقًا، لكن سلطته في أمور السياسة محدودة. وقد يكون الفيلسوف مثقفًا، لكن بضاعته في أمور علم الاجتماع مزجاة، وهلم جرا.

وصاحب الاختصاص الذي أتكلم عنه ليس شخصًا قد قرأ كثيرًا في موضوع ما وكتب عنه الكثير (كالكثير من المدونين اليوم على المنصات الصحفية بأنواعها). ذلك أنه على الرغم من دورهم المحمود في تبسيط المعلومات ونشرها، فإن الاكتفاء بقراءة المعلومات وإعادة تجميعها يعد أول مرتبة في التخصص. فالعلوم قائمة على أربعة أعمدة: معلومات، نظريات، مناهج للبحث، ونماذج معرفية. والمختص في نظري هو من بلغت معرفته الإلمام بالأعمدة الأربعة.

ويجدر الإشارة أن قضايانا في الواقع معقدة وليست حكرًا على تخصص واحد. بل إنه من المهم النظر في القضية الواحدة من رؤى مختلفة، فلسفية، وفنية، وسياسية، ونفسية، واجتماعية، وأخلاقية. لكن علينا أن نعي أن سلطة المختص تقف عند حدود تخصصه. وعلينا أن نسائل تخصص أصدقائنا من أهل "العمق" و"الثقافة" قبل أن نُسلّم بما يقولون.

المثقفون وثورة يناير
دروس من الماضي للمستقبل

أحمد مولانا

مع مرور عقد على اندلاع احتجاجات الربيع العربي، ووصول المشهد العام في مصر إلى انسداد غير مسبوق، وفشل النظام الحاكم الحالي في النهوض بأوضاع المصريين بالتوازي مع تبنيه لنهج القمع وفرض الجبايات، تزداد الحاجة لدراسة الأحداث السابقة لأخذ العبر منها من أجل المستقبل الذي نتوقع أن يكون ممتلئا بالمستجدات في ظل حقيقة أن نظام يوليو أُصيب بالشيخوخة في عهد مبارك، وفقد مشروعيته في عهد السيسي، وأصبح يدافع عن وجوده منذ اندلاع ثورة يناير.

وفي هذا المقال أتناول مدى تأثير المثقفين في تحديد مسار ثورة يناير، وإمكانية أن يكون لهم دور في توجيه مسار الأحداث مستقبلا، وأسعى لتقديم تحليل للاستقطاب (الإسلامي - العلماني) الذي ازدادت حدته بعد ثورة يناير، وأناقش هل كان استقطابا حقيقيا لابد منه أم مصطنعا من الممكن تجاوزه، وصولا إلى كيفية إدارته مستقبلا.

أولا: المثقفون وثورة يناير

بعض تعريفات المثقف، تجنح إلى أنه (كل من يعمل في مجال يتصل بإنتاج المعرفة أو نشرها)،[1] ويذهب إدوارد سعيد إلى أن المثقف فرد (ينهض بدور معين في الحياة العامة بمجتمعه... فرد يتمتع بموهبة خاصة تمكنه من حمل رسالة ما، أو تمثيل وجهة نظر ما، أو موقف ما، أو فلسفة ما، أو رأي ما.. وتمثيل ذلك باسم المجتمع).[2]

[1] إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1 (القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2006) ص40.
[2] المصدر السابق، ص43.

وهو تعريف يتسع ليشمل مفكرين وكتاب وإعلاميين وشعراء وأدباء وخطباء وما شابه. يلعب المثقفون دورا مهما في توجيه المجتمعات. فالمثقف الجاد مفترض أن يساهم في تنوير عقول الآخرين، وتوعيتهم بحقوقهم وواجباتهم، وشرح العقبات التي تعترض نهضتهم. ومن ثم عادة ما يتصدر المثقفون موجات الحراك الجماهيري، بل ويسبقونها بخطوات عبر التنظير للتغيير والثورة وانتزاع الحقوق. ولذا يقول سعيد أنه (لم يحدث أن قامت ثورة كبرى في التاريخ الحديث دون مثقفين).[3]

لكن في الحالة المصرية، لم تندلع ثورة يناير على خلفية تنظيرات ثورية طرحها المثقفون، حيث خلت الساحة الثقافية تقريبا من منظرين بارزين يدعون لتثوير المجتمع، ويمكن القول بأنه منذ تنظيرات سيد قطب في منتصف القرن العشرين لم تبرز تنظيرات ثورية في المشهد المصري. إنما تبنى بعض المثقفين مقاربات تدعو النظام للإصلاح، أو عدم توريث الحكم مثلما يتجلى في نموذج حركة كفاية.

عمليا، كانت جموع الشعب أسبق من الشرائح المثقفة في توسيع نطاق الدعوات التي أطلقها النشطاء السياسيين للاحتجاج في يناير،فحولوها إلى ثورة شعبية في ظل أجواء انسداد سياسي توجتها عملية تزوير موسعة لانتخابات مجلس الشعب في نهاية 2010 بالتوازي مع تصاعد الحديث عن توريث الحكم لجمال مبارك فضلا عن تدهور الأوضاع الاقتصادية، وتزايد وتيرة التراجع في حالة الحقوق والحريات وصولا إلى حادثتي قتل الشابين خالد سعيد وسيد بلال، وعدم قدرة مؤسسات الدولة على تلبية احتياجات الشعب الأساسية بتوفير معيشة آدمية وتعليم جيد ومنظومة صحية لائقة مما انعكس سلباً على حياة المواطنين.

كذلك لم يكن هناك دور مؤثر للمثقفين في توجيه الثورة بعد حدوثها مقارنة بدور قادة القوات المسلحة والأجهزة الأمنية وشبكات رجال الأعمال والنخب السياسية وقادة الجماعات المنظمة.

بل يمكن القول بأن طبقة المثقفين لعبت دورا سلبيا عبر إبراز وتعزيز الاستقطاب الثقافي (الإسلامي - العلماني) الذي ساهم في إعاقة مسار ثورة يناير، والتمهيد لانقلاب يوليو 2013.

[3] المصدر السابق، ص42.

ثانيا: الاستقطـــاب الثقافي (الإسلامي - العلماني)

اتسم عهد مبارك بوجود استقطاب إسلامي علماني تأجج في مطلع التسعينات خلال حقبة صراع النظام مع بعض الجماعات الإسلامية، وتحتفظ ذاكرة تلك الحقبة بندوات شهدت حضورا جماهيريا واسعا، وشارك فيها د. محمد عمارة والشيخ محمد الغزالي ود. محمد سليم العوا و د. فؤاد زكريا والكاتب فرج فودة فضلا عن الكتب التي كان يهاجم كل طرف فيها الآخر.

عقب ثورة يناير، عاد الاستقطاب الإسلامي العلماني للمشهد بحدة لأسباب موضوعية ومصطنعة. فالجزء الموضوعي يتعلق باختلاف تصورات كلا الفريقين عن شكل الدولة المنشود بعد الإطاحة بنظام مبارك، وخشية كل طرف من انفراد الآخر بصياغة شكل الدولة وفق أيدولوجيته.

وفي ظل الشعبية الكبيرة للقوى الإسلامية خشيت أغلب القوى العلمانية من تداعيات الاعتماد على الممارسات الديموقراطية، فحاولت أن تدعم في 2011 جهود القوات المسلحة لفرض مبادئ عليا فوق دستورية في وثائق علي السلمي ويحيى الجمل، ثم حين رأت أن العمليات الانتخابية التي حدثت بعد الثورة كافة فاز فيها الإسلاميون مثل انتخابات مجلسي الشعب والشورى والرئاسة فضلا عن رجحان الكفة التي دعمها الإسلاميون في استفتاء مارس 2011 او الاستفاء على الدستور في 2013، رفضت تلك القوى الإقرار بتبعات نتائج الانتخابات، وتحالفت مع القوات المسلحة تحالفا وفر واجهة سياسية لانقلاب يوليو 2013،

وقامت بذلك الدور جبهة الانقاذ بشكل أساسي قبل أن تتفكك لاحقا بعد نجاح الانقلاب.

توهمت أغلب القوى العلمانية وبالأخص الممثلة في كيانات حزبية مثل (الوفد، الدستور، المصريون الأحرار، المصري الديموقراطي الاجتماعي، الكرامة، التحالف الاشتراكي) أن إزاحة الجيش للإخوان من الحكم ستفتح لها الطريق كبديل عن الإخوان، وتزايدت تلك الطموحات مع تعيين محمد البرادعي نائبا لرئيس الجمهورية عقب الانقلاب، وتشكيل حكومة برئاسة حازم الببلاوي وبعض المحسوبين على الحزب المصري الديموقراطي الاجتماعي، لكن سرعان ما لفظتهم القوات المسلحة وشكلت حكومات لاحقة غير مسيسة.

ويمكن القول بأن أغلب القوى العلمانية فضلت في فترة مفصلية نار العسكر على حكم مدني يقوده إسلاميون، وتوهمت أنها ستحقق تحت بنادق العسكر ما لم تحققه عبر صناديق الاقتراع. والاستثناءات من ذلك موجودة لكنها محدودة، ومن أبرزها الاشتراكيون الثوريون وبعض الأفراد الذين رفضوا الحكم العسكري، ولم يقبلوا خيار الانقلاب العسكري على رئيس منتخب.

وفي المقابل، أثارت بعض القوى الإسلامية وبالأخص السلفية معركة مصطنعة حول قضية الهوية، فبعد تنحي مبارك مباشرة، سارع عدد من الدعاة إلى عقد سلسلة من المؤتمرات الجماهيرية تحت شعار (الحفاظ على المادة الثانية من الدستور). والملفت أنه في ذلك الوقت المبكر الذي دُشنت فيه تلك المؤتمرات لم تكن هناك دعوات تستهدف تغيير تلك المادة من الدستور، وهو ما يضع علامات استفهام على دوافع منظمي تلك المؤتمرات، وبالأخص مع استصحاب عدم مشاركتهم في ثورة يناير ثم اختفائهم من المشهد عقب الانقلاب. وعمليا ساهمت مجهوداتهم في تعزيز حالة الاستقطاب الإسلامي العلماني، كذلك ساهمت التصريحات العفوية لبعض الدعاة في توفير بيئة خصبة للاستقطاب كما في التصريح الشهير للشيخ محمد حسين يعقوب بعد الاستفتاء على الإعلان الدستوري في مارس 2011 (وقالت الصناديق للدين نعم).

كذلك ساهمت الاتهامات الموجهة من بعض الحركات الشبابية مثل حركة 6 إبريل لجماعة الإخوان بالتحالف مع المجلس العسكري، بالتزامن مع مواقف الإخوان الرسمية من بعض الأحداث مثل أحداث محمد محمود، في دعم جهود بعض القوى العلمانية لتكريس صورة أن الإخوان خانوا الثورة بعد أن قفزوا عليها، وهو ما شجع بعض الحركات الشبابية لاحقا على التحالف مع القوات المسلحة لإزاحة الإخوان من الحكم.

هل من آفاق لتقليل حدة الاستقطاب الإسلامي العلماني؟

الاستقطاب العلماني الإسلامي توافرت له أسباب ذاتية ومصطنعة، وتقليل حدة هذا الاستقطاب مستقبلا يتطلب مراجعات جادة من الطرفين.

فالقوى العلمانية تحتاج أن تراجع مدى تمسكها بمبادئها المعلنة واحترام إرادة المواطنين، وطبيعة علاقاتها بالقوات المسلحة، ونظرتها للقوى الإسلامية، حيث أن العديد من الرموز العلمانية لا يتصورون مكانا للإسلاميين سوى في السجون أو على مقاعد المعارضة، ويرفضون ابتداء وجود الإسلاميين في مقاعد السلطة.

في حين بالمقابل تحتاج الأوساط الإسلامية إلى مزيد من التوعية السياسية، وتجنب فتح معارك وهمية لإثبات الوجود، والابتعاد عن دغدغة مشاعر الجماهير بتصريحات عنترية، وإقامة جسور تواصل مع القوى غير الإسلامية التي تحترم خيارات المواطنين وترفض العيش في كنف الاستبداد.

وهنا يأتي دور المثقفين عبر تزايد احتكاكهم بقضايا المجتمع وتسليطهم الضوء عليها، وتوعيتهم للجماهير بحقوقها المسلوبة وإحيائهم لمعاني رفض الظلم، بعيدا عن نموذج مثقفي السلطة الذين يوظفون الثقافة لخدمة الاستبداد وتبرير جرائمه وتجاوزاته أو نموذج المثقفين المنفصلين عن الواقع ممن يركزون على قضايا سفسطائية جدلية بعيدة عن اهتمامات ومشاكل الناس.

وإن تغيير تراتبية الحكم في مصر، والذي تقبع القوات المسلحة على رأسه، يتطلب اصطفافا وطنيا حقيقيا يقوم على احترام إرادة المواطنين وهويتهم بعيدا عن الأفكار الوصائية الاستعلائية التي ترى أن النخبة السياسية تدرك مصالح الجماهير أكثر من الجماهير ذاتها أو تتبنى مقاربة إقصاء أكبر مكون جماهيري شعبي متمثل في الإسلاميين من حقه في شغل مقاعد السلطة في حال اختيار الشعب لهم.

ومن نافلة القول التأكيد على أن تراجع حدة الاستقطاب الإسلامي العلماني وتحقيق الاصطفاف لن يتحقق عبر شخصيات تخدم أجندات مرتبطة بالنظام الاستبدادي أو قوى دولية وإقليمية، إنما يتطلب شخصيات وطنية حرة نظيفة اليد والسمعة، مستقلة القرار، تعلي الصالح العام على مصالحها الشخصية والفئوية الضيقة، وتراعي أنه في حال تجاهل عوامل نجاح الاصطفاف، ستستمر حالة الاستقطاب بين المكونين الإسلامي والعلماني، مما يصب في صالح قوى الاستبداد.

النخبة الثقافية وثورة يناير
أوان عودة المثقفين للشارع

إبراهيم هلال

في 22 يناير عام 2013 عقدت مكتبة الإسكندرية مناظرة أدارتها المذيعة المصرية "مي الشربيني" بين "سوزان ندا" مدافعة عن موضوع المناظرة، وبين الدكتور "حسام أبو البخاري" معارضا لموضوع المناظرة، الذي كان عنوانه "نحن نرى أن مصر أصبحت مقسمة وغير متسامحة بصورة خطيرة إذ دافعت "ندا" بشكل مستميت عن فرضية "قيام حرب أهلية بمصر" بسبب الانقسام المجتمعي الحاد الذي حدث خلال 6 شهور من فوز الدكتور محمد مرسي -رحمه الله- برئاسة مصر.

وهي نفس الحجة التي رفعها المعتصمون من الفنانين المصريين أمام وزارة الثقافة، بعدما تولى الدكتور علاء عبدالعزيز الأستاذ بالمعهد العالي للسينما حقيبة وزارة الثقافة بمايو 2013، لقرار الذي رفضه عدد كبير من الفنانين والأدباء والناشطين ثقافيا مثل "علاء الأسواني" و"فاطمة ناعوت" . والذين أيدوا -بعد ذلك- الانقلاب العسكري الذي أطاح بالرئيس السابق محمد مرسي وبالتجربة الديمقراطية في مصر عقب ثورة يناير؛ بحجة أن الانقلاب قد أنقذ مصر من الحرب الأهلية. وهو ما يطرح التساؤل حول من هو المثقف؟ وما دوره ومسؤوليته تجاه الشأن العام بعد ثورة يناير المصرية؟

ثورة يناير وإعادة إحياء المثقف

لم تكن ثورة يناير 2011 مجرد "هبة شعبية" انبثقت من العدم وصادفت سياقا سمح لها بالتمدد والانتصار، ولم تك مجرد "انفجار" نتج عن حالة من الغليان الاجتماعي والاقتصادي يعيشها المجتمع المصري، بل كانت حالة مركبة، من تفتق الوعي بضرورة التغيير السياسي،

وإدراك أن "الاستقرار ومؤشرات التنمية" ليست بديلا عن الإصلاح السياسي، وليست بديلا عن "النهضة"، القضية التي أرقت المفكرين في بلادنا العربية منذ نهاية القرن التاسع عشر واختلفت حولها تصورات التيارات السياسية المختلفة التي شاركت في الحياة السياسية المصرية حتى جاءت حركة الضباط في يوليو 1952 لينهوا الحياة السياسية ويغلقوا السياسة نهائيا، ويبدأ الحكم العسكري في مصر، يتناوب على كرسي الرئاسة عسكري بعد آخر، حتى وصلت مصر في عهد "مبارك" لمستوى غير مسبوق من الموت السياسي والفساد الاقتصادي واستبداد نخبة ضيقة من رجال الأعمال بثروات مصر، وعربدة رجال الشرطة ظلما وتعذيبا وقتلا في الشعب المصري دون محاسبة ولا رادع.[4]

تصادي واستبداد نخبة ضيقة من رجال الأعمال بثروات مصر،هذه الحالة من الوعي تجلت بوضوح لدى مؤسسي الحركة المصرية للتغيير "كفاية" خاصة عند أبرز مؤسسيها ومنسق الحركة الدكتور عبدالوهاب المسيري[5]، الذي رفع شعار "المثقف يجب أن يكون في الشارع"، ليصادق مفهوم "المثقف العضوي" المصطلح الذي صكه المنظر الماركسي الإيطالي أنطونيو غرامشي في "دفاتر السجن"، حيث وضح أن هذا "المثقف العضوي" ليس المثقف العامل في "البروباجندا الحزبية" ولا العامل في حظيرة نظام سياسي معين، لكنه "المثقف القادر على تبيين أن الواقع الاجتماعي القائم غير طبيعي، ويمكن تغييره بالقدرة على تحليل ثقافته ونقدها، وتحقيق الهيمنة الثقافية للمضطهدين"[6] وهذا ما وضحه المسيري في كلمته خلال المؤتمر الأول لحركة كفاية عندما قال إن "الإنسان التاريخي بعكس الإنسان الاقتصادي قادر على تجاوز واقعه إلى واقع مأمول"[7]؛ كما أن وجود "المسيري" في حركة سياسية مثل حركة "كفاية" كان محفزا للفئات الشبابية من الطبقات الوسطى الجديدة من المتعلمين "الانتلجنسيا" الذين بدؤوا في الاشتباك مع قضايا الشأن العام طلبا للحرية والعدالة الاجتماعية والأهم: طلبا لدولة القانون والمؤسسات التي قامت ثورة يناير لتفعيلها وليس لهدمها.

فكان اشتباك هذا "المثقف العضوي" من خلال حركة "كفاية" والجمعية الوطنية للتغيير هو بداية تكوين خطوط دفاعية تجمع حولها الشباب وفئات مختلفة من الشعب المصري، ما سماه غرامشي ب"المجتمع المدني القادر على احتواء المثقفين كأدواته الأيديولوجية"[8] التي تمد الحراك المجتمعي والسياسي بنوع من الشرعية تأكل من شرعية النظام. بجانب كسر النسق الثقافي القديم الذي كان "المثقفين" فيه من أدباء وفنانين وخبراء وتكنوقراط مجرد أدوات طيعة في يد السلطة، وأبواق دعائية لها، إذ وقع المثقف المصري حينذاك في أزمة تجلت في:"انفصاله عن وظيفته الاساسية بوصف المثقف صوتا للمجتمع ومدافعا عن قضاياه، واتصال بل التحام مع السلطة، وتبني مشاريعها والترويج لها،حتى إن كانت ضد مصالح الشعب".[9]

وكما أعطى المثقف العضوي بحراكه الثقافي والسياسي والاجتماعي الدفعة الأولى التي تطورت فيما بعد على يد المجموعات الشبابية لتظاهرات واحتجاجات تحولت إلى ثورة بعد انضمام باقي فئات وأطياف الشعب لها؛ فقد عملت "الثورة" على إحياء دور "المثقف العمومي" مرة أخرى، على حساب استبعاد "المثقفين المزيفين" الذين كانوا يعملون كأبواق لصالح النظام؛ والمثقف العمومي كما يعرفه الدكتور عزمي بشارة هو "المتخصص صاحب الثقافة الواسعة الذي يكتب وينتج بلغة مفهومة للعموم عن قضايا تهم المجتمع والدول بشكل عام.. الذي يؤدي دورا في الشأن العام انطلاقا من كونه مثقفا،معارفه شاملة عابرة للتخصصات"؛ وهذا المثقف قد تواجد في العالم العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر، مع عبدالرحمن الكواكبي وخير الدين التونسي وبطرس البستاني ومحمد عبده وفرح انطون وطه حسين ورشيد رضا، وحتى محمد سليم العوا ومحمد عمارة رحمه الله ومحمد عابد الجابري و عبدالله العروي وغيرهم.[10]

إلا أن هذا المجال الذي أعطته الثورة لـ"المثقف العمومي" والمفكرين والأكاديميين، و المسرح الذي هيئته الثورة ل"النخب" (أ) لتلعب أدوارا على الساحة السياسية، قد عطلت من مسار الثورة وحدث نوع من الانقسام الفكري والصراع السياسي الذي استخدمته قوى "الثورة المضادة" كمبررات لإنهاء السياسة وإغلاق المجال العام مرة أخرى، كما حدث مع حركة الضباط 1952 رغم اختلاف السياق التاريخي.

ثورة يناير بين المثقف الميت والمثقف المميت

تشكلت النخب الثقافية في عالمنا العربي الحديث في الفترة الممتدة من مرحلة النهضة والاستقلال، وحتى مرحلة ما بعد الاستقلال وصولا لعصر سقوط المشاريع السياسية الكبرى، فقد تزلزل المشروع السياسي الإسلامي" باغتيال الشيخ حسن البنا وتحول تيار "الإسلام السياسي" لتيار معارض بلا رؤية واضحة، وهُزم المشروع القومي العروبي في مصر وسوريا بهزيمة 1967 الثقيلة، وحتى المشروع العلماني الأتاتوركي ونسخته العربية في تونس مع الحبيب بورقيبة قد فشلا في تحقيق "النهضة".[11]

خلال تلك الفترة، انعدمت المدارس التنظيرية العربية التي تنطلق من واقعها وثقافتها العربية والتي تختلف عن ثقافة وخصوصية الآخر المتفوق،

و"كان ذلك كافيا لإنسياق النخب العربية وراء ما أنتجته النخب الغربية من مفاهيم وأدوات تحليل وُلدت في بيئة مختلفة عن خصوصياتنا الثقافية" [12]، كما أن عملية الاستيراد هذه للنظريات التحليلية، نتيجة نظرة الانبهار "لم تخضع لعملية تعديل ومراجعة حتى تلائم بيئتنا العربية الإسلامية". أما النخب الثقافية من "التيار الإسلامي" فقد انغرست أقدامها في وحل الرد على النخب الماركسية والليبرالية، "الأمر الذي أوقعها في منعرج خطير، وأصبح من اليسير ملاحظة عدم وضوح رؤية تلك النخب ولا حتى حضورها فاعلا مساهما في عملية الحراك"[13]. ورويدا رويدا، انكفأت تلك النخب الثقافية بعيدا عن مجريات الواقع، فعندما أصابت شظية الثورة الحياة الثقافية فأحرقت قصورها، خرجت تلك النخب من انكفائها محملة بإرث قديم لا يتناسب والواقع الجديد؛ فأصبح لدينا "المثقف الميت" على غرار الأفكار الميتة [14] التي تحدث عنها "مالك بن نبي" وهي الأفكار التي يتم استدعاؤها من التاريخ لحسم معارك الحاضر والمستقبل.

على الجانب الآخر، كانت النخب الثقافية الماركسية والليبرالية، المشبعة بالإرث "العلماني" بعد ثورة يناير، لا تملك أدوات مفاهيمية لتفكيك الواقع ولا مشروع ثقافي أو سياسي واضح يختلف عن الانسياق وراء "الغرب المتفوق"، ولا هم حتى قاموا بالدور نفسه الذي أداه المثقفون بالغرب في قيادة عملية الحراك الاجتماعي أو الثورة[15] بل ذهبت تلك النخب الثقافية أبعد من ذلك، في الانفصال عن المطالب الأساسية للمجتمع والحراك الاجتماعي والثورة، وسخّروا مواقعهم بصفتهم فاعلين، "في كيد التهم والأحقاد لمن يخالفهم "باسم أوهام زائفة في مقدمتها "عداء الاسلام وكل ما يتصل به من قيم باسم الحداثة والتقدم"[16] ليلعبوا دور "المثقف المميت" الذي يحمل أفكارا سامة مستوردة كما يقول المفكر مالك بن نبي؛ بل راحت تلك النخب الثقافية تلوح باستدعاء "المؤسسة العسكرية" وتدعو لتدخل الجيش لإنهاء حالة "الانقسام" وإنهاء المسار السياسي لبناء "دولة مؤسسات ديمقراطية"، متخلين عن أي مبادئ أخلاقية أو سياسية أو ديمقراطية تشدقوا بها طويلا في خطابهم.

متبعين في ذلك "التقليد النيتشوي" الذي يقول بأن "الأخلاق بما فيها فكرة العدالة والتسامح والمساواة..تعبير عن علاقة القوى في المجتمع وإرادة القوة، وإن هذا ينطبق على النظرية الاجتماعية والفلسفة، وإن الإبداع الجمالي وحده في الموسيقى والفنون التصويرية والأدب، يمكنه أن يشكل نقدا للواقع، لأنه ينطلق من طبيعة الانسان العميقة وينسجم مع الطبيعة"، وبالطبع لا ينتج عن هذا الموقف -كما يقول عزمي بشارة- إلا العدمية الاخلاقية، التي تتجلى عند تلك النخب "العلمانية" في ثنائية:

أما تطبيق مفاهيمهم المستوردة عن "الحرية"و"العدالة الاجتماعية "و"الثورة" و"الشعب"، المستعلية عن مجتمعاتهم العربية الإسلامية، وإما إستدعاء قوة أكبر (الجيش) للقضاء على "الإسلاميين" ثم بدء النضال من جديد على هدي "قواعدهم الخاصة".

وكان أوضح مثال على تملك تلك "النزعة النتشوية" العدمية "الموالسة" للقوة، هو اعتصام الفنانين والأدباء والمثقفين أمام وزارة الثقافة بالقاهرة يونيو2013، ودعم الفنانين المصريين والأدباء مثل "علاء الأسواني" لانقلاب الجيش على التجربة الديمقراطية الوليدة ونسف قواعدها.

ضرورة الاتفاق وأوان عودة المثقفين للشارع

كانت تلك الأدوار التي لعبها "المثقفون" في عصر مبارك، قبل أن يتحرك "المثقفون الحقيقيون" والأدوار التي لعبها المثقفون بعد ثورة يناير في الفترة بين 2011 وحتى 2015، جديرة بفقدان الثقة الذي عاد للشارع المصري والعربي عموما في جدوى خطاب "المثقفين" لإيجاد حلول تنتشلهم من واقعهم المضني.

في هذا السياق تظهر أهمية الرأي الذي ذهب إليه "ميشيل فوكو" حول دور المثقف في المجتمع وخلال الحراك الاجتماعي والثوري، إذا يذهب فوكو إلى أن دور المثقف هو طرح الأسئلة لا الأجوبة "فهو يجعل طرح الأسئلة مهمة المثقف.. فليست وظيفة المثقف أن يخبر الناس ما عليهم ان يفعلوا، فبأي حق يفعل ذلك؟ وظيفته ليست أن يصحح إرادة الآخرين السياسية، بل أن يجعل الواقع القائم والمفروغ منه موضع مساءلة، أن يزعج ما اعتاد عليه الناس، وكيفية تفكيرهم في الواقع والحياة من حولهم وتبديد ما هو مألوف، وإعادة تشكيل القواعد والمؤسسات، وفي هذا يتحمل مهمة عينية كمثقف. أما تشكيل الإرادة السياسية فلديه دور يؤدي فيه كمواطن" وليس للمثقف أي ميزة تفرقه عن المواطن الذي له إرادة سياسية أيا كانت.

فدور "المثقف" هو توفير المناخ الثقافي الذي يخلق نوعا من "الخيال السوسيولوجي" يمّكن عوام الناس من الوصل بين سبُل معاشهم و"مواقعهم التاريخية"، فبالخيال السوسيولوجي وحده -كما يقول تشارلز ميلز- "يدخل العوام التاريخ،ويتحررون من منظور الخلاص الفردي الذي يهيمن عليهم ويحول بينهم وبين الفعل الايجابي".

وهذا "الخيال السوسيولوجي" يلزمه تصور ثقافي وسياسي يتجاوز الواقع الحالي إلى واقع آخر مأمول للتغيير، وهذا التصور لا يتحقق إلا بدخول جميع النخب الثقافية الحالية في مسار من بناء الوفاق عبر إعادة تنظيم علاقتهم ببعضهم البعض والاعتراف بتعدد الهويات الثقافية، فلا التيار العلماني يستطيع القضاء على الثقافة الإسلامية والإسلاميين، ولا التيار الإسلامي يستطيع نبذ واستبعاد التيار العلماني؛ مسار ينطلق من أرضية مشتركة، أرضية الأزمة الخطيرة التي وقعت بها مصر: الانسداد السياسي والانهيار الاقتصادي المحتمل والتهديد الوجودي الذي يوجهه "سد النهضة" لمصر، بجانب الانهيار الأخلاقي والمجتمعي بالمجتمع المصري.

الأمر الذي يدعو جميع النخب والمثقفين المصريين للخروج من سجن "ميدان التحرير"، ف"الثورة" أداة للتغيير وليست غاية في ذاتها، وهي إحدى صيغ الانتقال الديموقراطي التي تهدف إلى تغيير النظام جذريا، لكن، هناك صيغ أخرى للتغيير تناسب الأنظمة المصابة بالتكلس السياسي نتيجة مواجهة أزمة سياسية خطيرة مثل "سد النهضة" أو "الديون الخارجية" أو الانهيار الاقتصادي؛ إذ تسعى جهات داخلية بتلك النظم للبحث عن طوق نجاة؛ وهنا يكون دور النخب والمثقفين هو عقد نوع من المساومة مع النظام لإعادة فتح مساحة للتغيير السياسي وإنقاذ "المعتقلين". قبل ذلك، على المثقفين العودة إلى قضايا الشارع المصري مرة أخرى داخل هيئة سياسية مثل "الجمعية الوطنية للتغيير" بعد عقد مصالحة وطنية بين التيارات الثقافية والسياسية، تعيد الوفاق والاصطفاف الوطني حول ضرورة التخلص من الحكم الاستبدادي وإنقاذ مصر.

الهوامش:

أ/ يُعرف الباحث "سعيد حسين العبدولي" النخب بأنها "الفئة البارزة في المجتمع..ويحيل لمفهوم الطبقة أو الجهة المتنفذة فكريا،واقتصاديا ، وسياسيا أوغيرها من المجالات..وفي جانبها السياسي أي الطبقة الحاكمة وصاحبة المشروع السياسي والنخبة الفكرية صاحبة التصورات والأطروحات النظرية في سياقات معرفية متعددة. ويعرفهم جوليان بندا في سياق حديثه عن المثقفين الحقيقيين:"أقرب ما يكونون إلى الصدق مع أنفسهم حين تدفعهم المشاعر الميتافيزيقية الجياشة والمبادئ السامية،أي مبادئ الحق والعدل، إلى فضح الفساد والدفاع عن الضعفاء وتحدي السلطة المعيبة الغاشمة".(12) ص211

ب/ مفهوم "الثورة" عند المسيري يختلف عن مفهوم "الانتفاضة"، فالثورة هي قطيعة مع التاريخ ومع ما قبلها، مثلما تجلت في "الثورة الفرنسية" بينما "الانتفاضة" هي عودة للتاريخ، بمعنى عودة الانسان لفهم موقعه من التاريخ والاستلهام منه والانتماء له.

المصادر والمراجع:

1/ للمزيد من الاطلاع انظر كتاب "البحث عن خلاص: ازمة الدولة والإسلام والحداثة في مصر"، تأليف شريف يونس، الهيئة المصرية العامة للكتاب

وانظر أيضا "الفكر السياسي عند حسن البنا" تأليف إبراهيم البيومي غانم، دار مدارات

2/ المثقف والثورة، تأليف الدكتور عزمي بشارة، ص9

3/ورقة: المثقف الأكاديمي بين المعرفة العلمية والممارسة السياسية: "تونس نموذجا" تأليف: يسري بن الهذيلي

ضمن كتاب: النخب والانتقال الديموقراطي: التشكل والمهمات والأدوار، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص307

4/ ورقة: الحركات الاجتماعية في العالم العربي والتناول النخبوي لرهانات التحول أزمة ضمير أم تعطل في الأدوار؟

تأليف: سعيد حسين العبدولي، ضمن كتاب: النخب والانتقال الديموقراطي: التشكل والمهمات والأدوار، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص212

5/ في الأفكار "الميتة" والمميتة"

6/ ورقة: الحركات الاجتماعية في العالم العربي والتناول النخبوي لرهانات التحول أزمة ضمير أم تعطل في الأدوار؟

تأليف:سعيد حسين العبدولي، ضمن كتاب: النخب والانتقال الديموقراطي:التشكل والمهمات والأدوار، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص213

7/ ورقة: النخب؛ بناء الوفاقات وترويض السياسة لكمال الغزي

ضمن كتاب: النخب والانتقال الديموقراطي: التشكل والمهمات والأدوار، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص35

الثقافة والسلطة في مصر الحديثة.. الحرب الصامتة

عبدالوهاب محمد

تتناول هذه المقالة بإيجاز مدخلا نظريا لفهم إشكال علاقة السلطة بالثقافة وبصفة خاصة في حقبة الحداثة المعاصرة، ثم إشارات تطبيقية حول أهم ملامح تطور هيمنة الدولة الحديثة في مصر على أدوات إنتاج وتوريث الثقافة. وفي البداية، أستعير مقولة د. وائل حلاق في كتابه قصور الاستشراق: "يمكن للمرء أن يقضي عمره كله في دراسة مجال الواقع الذي يُبرز التداخل بين المعرفة والقوة دون أن يفهم قوتها الكاملة أبدا، ناهيك عن بنيتها وتفردها ونسبها"، أستعيرها لتخفيض سقف التوقع قبل المضي في القراءة، كونَ المقالة لن تتعدى محاولة لخدش السطح حول هذا الموضوع الإشكالي الضخم.

مفردة الثقافة بين سياقين مختلفين

استعمال مفردة "الثقافة" في الخطاب العربي يُعد حديثا جدا لا يتجاوز بدايات القرن العشرين، وهي بالأساس ترجمة للمصطلح الإنجليزي "culture" وكذلك مصطلح "intellectual" الذي يُترجم إلى "مُثقف". ولضيق مساحة المقال سنتجاوز جدل التعريفات غير المحدود، لنشير أولا: إلى تعريفنا للثقافة بمعنى المعرفة التي تتحكم في توجيه سلوك الناس وتحديد أنماط حياتهم، وعند الحديث عن ثقافة مجتمع ما فنعني بذلك القاسم المشترك المعرفي الذي يحدد الجوامع العامة لهذا المجتمع ومن ثم تنبني عليه أنماط اجتماعهم وأسس حياتهم، واستمرار وجود هذا المشترك هو ما يضمن بقاءهم كمجتمع بحكم التعريف.

وثانيا: إلى كون هذه المفردة ليست فقط وافدة من سياق لغوي مختلف، وإنما أيضا وافدة من سياق حضاري مختلف بما يعني أن إشكالاتها ومن ضمنها علاقتها بالسلطة هي إشكالات وافدة من سياق الاجتماع الغربي الحديث (وهذا ما سنعود إليه مرة أخرى لاحقا).

القوة والمعرفة بين فوكو وسعيد وحلاق

من أهم دارسي علاقات المعرفة بالسلطة الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو، وباختصار -قد يكون مُخلّا بعض الشيء- يرى فوكو أن أية معرفة سائدة هي مرتبطة حتما بعلاقات القوة، بمعنى أن ما يمكن تسميته بديهيات أو مسلمات فكرية عند البعض هو في الحقيقة إيحاءات مصدرها بنية السلطة السائدة، هذه الإيحاءات لا تكون توجيها مباشرا من سلطة ما لمجموعة من المثقفين والمفكرين، وإنما هي بنية مبثوثة في الخطاب والممارسة والتنظيم عبر آلاف الإشارات المتداخلة تؤدى في النهاية إلى ما يشبه برمجة خفية لعقل المثقف في اتجاهات محددة، وقد تستند بعض أفكار فوكو في هذه الصدد على نظريات كارل ماركس أيضا حول الأيديولوجيا والطبقة. امتد تأثير فوكو ليشمل عددا غير محدود من الباحثين والمفكرين الذين اختلف بعضهم في تأويله وفهم نظرياته، منهم إدوارد سعيد الذي بنى نقده للخطاب الاستشراقي الغربي تأسيسا على أفكار فوكو حول المعرفة والسلطة، فاعتبر سعيد أن مجمل الدراسات الاستشراقية الغربية ارتبطت بالعقلية الاستعمارية التي أنتجت ووظفت المعرفة من أجل أغراض الكولونيالية، ما يعني مرة أخرى ارتباط السلطة بالمعرفة. بينما نجد وائل حلاق في نقده الحاد لمشروع إدوارد سعيد يعتقد أن قصور رؤية سعيد منعته من إدراك ارتباط الكولونيالية نفسها بالحداثة، بمعنى أنه لا يمكن الاكتفاء بنقد الخطاب الاستشراقي في إطار رده للسلطة الاستعمارية، ولكن يجب رد الاثنين معا لمشروع الحداثة الذي أنتج كلا منهما، ويعتقد حلاق بأن هذه الفرضية تعبر بشكل أقرب عن أفكار فوكو. وما يعنينا من حاصل هذا الجدل هو فهم فرضية أن إشكال علاقة الثقافة بالسلطة هو إشكال مرتبط بالحداثة والتحديث كما أسلفنا، ومقارنة هذا الأمر بخبرة التاريخ الإسلامي قبل الحديث -مثلما فعل وائل حلاق- أثبتت أن الارتباط بين القوة والمعرفة لم يوجد بهذا الشكل القسري في تاريخنا القديم. ومن ثم سننتقل للسؤال الأهم في هذه المقالة: كيف حاولت الدولة الحديثة في مصر احتكار أدوات بناء الثقافة؟ وكيف حاربت الأطر التقليدية المجتمعية التي كانت قائمة على إنتاج الثقافة المشتركة وتوريثها في المجتمع المصري ما قبل التحديث؟

الدولة الحديثة في مصر واحتكار أدوات بناء الثقافة

يمكن تصور دعائم بناء القيم والثقافة المشتركة داخل المجتمع المصري القديم من خلال عدة أركان رئيسية: التعليم الأهلي، شبكة علماء الأزهر، الطرق الصوفية، روابط الحرفيين والصناع، ومؤسسة الأسرة القادرة على التماسك.

تعمل هذه المؤسسات (بالمعنى الاجتماعي التحتي للكلمة وليس المعنى الإداري الفوقي لها) بشكل متداخل على إنتاج ثقافة المجتمع وتوريث قيمه، وتستمد حيويتها واستقلاليتها ماليا من خلال مؤسسة الوقف، وإداريا من خلال كونها مؤسسات أهلية تنشأ بمبادرة من قبل الناس أنفسهم وإذا ما ثار بينهم خلاف يلجئون لقضاة يحكمون وفقا للشريعة التي قننتها المذاهب الفقهية عبر سلطة الضمير والوازع الديني الجماعي. هذه التكوينات أثبتت فعالية في حينها جعلت بعض المؤرخين، كما يذكر جوان كول، يتحيرون من مقاومة المصريين المنظمة للحملة الفرنسية التي نظمتها بشكل خفي هذه التكوينات المبثوثة في بنية المجتمع. ربما كان مفترضا لمسارات التحديث والتقنين في مصر أن تؤدي إلى ضبط وتقنين هذه الشبكات والتكوينات بينما لم يكن مطلوبا تفكيكها واستبدال أخرى بها عبر قرارات من السلطة، إذ أن السلطة يجب أن تساهم في تنظيم المجتمع لا أن تصيغه وتنشئه من جديد.

يرتبط مشروع التحديث في مصر بالاستعمار، والاستعمار في بلادنا نشأ قبل المستعمرات واستمر بعدها. فمِصر، موضوع المقال، سقطت في دائرة النفوذ الأجنبي قبل الاحتلال البريطاني الرسمي عام 1882، واستمرت في دائرة النفوذ الاستعماري أيضا بعد جلاء قوات الاستعمار عام 1954،

يُذكر هنا على سبيل التدليل على بداية النفوذ الاستعماري قبل مجيء الاستعمار المباشر أن أول مجلس وزراء (نظار) في مصر الحديثة الذي أنشأه الخديوي إسماعيل عام 1878 ضم في عضويته وزيرين أجنبيين أحدهما انجليزي للمالية وآخر فرنسي للأشغال، مما يعني أن عمليات التحديث منذ تلك الأثناء تمت في ظروف وشروط استعمارية.

نقاط على مسار تحديث إنتاج الثقافة في مصر

من خلال المحطات التالية، سنتتبع بإيجاز أبرز محطات سيطرة الدولة الحديثة في مصر أثناء رحلة تأسيسها على موارد إنتاج الوعي وتشكيل الثقافة، من خلال النقاط التالية:

أولا: تعد أول محاولة في مصر لوضع وتقنين أسس بناء الدولة الحديثة، هو مرسوم "سياست نامه" الذي أصدره محمد على باشا عام 1837 لتقنين سياسة إنشاء الدواوين، ومن بينها "ديوان المدارس" الذي كان منذ من سلطاته الإشراف على المدارس الرسمية، الابتدائية والتجهيزية، وكذلك على مطبعة بولاق وجريدة الوقائع. ومع ذلك ظل التعليم الأهلي موجودا، والصحف الأهلية كذلك، واقتصرت هذه الوظائف الرسمية، بما فيها المدارس الأميرية، على المهام السيادية للدولة وعلى رأسها بناء الجيش وإمداده بالعناصر البشرية المؤهلة نفسيا وبدنيا للتجنيد، بينما ظلت للمجتمع في المقابل أيضا روافده الحية ومؤسساته. ومن ثم نلحظ بدايات الانشطار الثقافي في مصر الحديثة.

ثانيا: مع إنشاء الخديوي إسماعيل مجلس النظار عام 1878، توسع "ديوان المدارس" وتحول إلى "نظارة المعارف" التي توسعت سلطاتها لتشمل المدارس والمكاتب الأهلية إلى جانب الأميرية، وكذلك الإشراف على الأوقاف التي مثلت رافدا لاستقلال مؤسسات المجتمع المصري وشبكاته زمنا طويلا.

ونشأت في نفس العام أيضا "نظارة الداخلية" التي ضمت إلى سلطاتها المطابع الأهلية، و"نظارة الحقانية" التي سيطرت على المحاكم الشرعية قبل أن يتم إلغاؤها بالكامل في خطوات تحديث لاحقة.

ثالثا: في عام 1939 أنشئت وزارة الشئون الاجتماعية، ومن ضمن صلاحياتها المتسعة في ذلك الوقت: الإشراف على دور السينما والموالد وأدوات الإرشاد والدعاية ومحاضرات التثقيف وغيرها.

رابعا: بعد حركة ضباط يوليو عام 1952، تأسست وزارة الإرشاد القومي، وجاء في قرار تأسيسها النص على "دورها في توجيه أفراد الأمة وتيسير سبل الثقافة الشعبية". وفي بداية تأسيسها كانت تحمل اسم وزارة الاتصال والإعلام وتغير الاسم بعد شهور للإرشاد القومي والثقافة ثم إلى وزارة الإرشاد القومي، واستمرت قائمة حتى عام 1965 لتنفصل وزارة خاصة تحمل اسم وزارة الثقافة، ولاحقا عام 1982 أنشئت وزارة الدولة للإعلام للمرة الأولى.

رابعا: في تعريف وزارة الثقافة رسميا لنفسها أشارت إلى كونها امتدادا لعدة أجهزة سابقة في تاريخ بناء الدولة المصرية الحديثة، مثل "دار الكتب المصرية" التي تأسست منذ عام 1870 في عهد الخديوي إسماعيل، و "مصلحة الآثار" التي أنشئت في عهد الخديوي سعيد، و "الإدارة العامة للثقافة" التي تأسست عام 1936 ضمن وزارة المعارف و"مصلحة الفنون" التي صدر قرار إنشائها من رئيس الجمهورية في 1955 لرعاية فنون المسرح والسينما والفنون التشكيلية.

بهذا القدر من الاختصار، أردت توضيح مسار التحديث في مصر بما مَثَّلَهُ من عمليات هيمنة مركبة ومتداخلة على عمليات إنتاج الثقافة وبناء الوعي في مصر الحديثة، وبقدر تعقيد وتركيب مفهوم الثقافة وعدم إمكان التعبير عنه بكلمات محدودة يتضح أيضا حجم التداخل والتعقيد والتركيب في محاولات مأسسته وتشكيلة إداريا. وكما أشرنا من قبل ارتبطت كافة هذه التطورات بالشروط الاستعمارية -بالمعنى البنيوي عند فوكو- وبالعلمانية التي بدأت جذورها الأولى في حكم محمد علي وذريته خاصة إسماعيل.

تفكيك البُنى المجتمعية التقليدية.. الخط الموازي للبناء

من أجل استقرار هذه البنى الحديثة، كان هناك خط آخر يعمل بالتوازي لتفكيك البُنى المجتمعية التقليدية بدلا من تحديثها من داخل قواعدها أو حتى تقنينها، وما بدأ منها بالتقنين انتهى بالتفكيك وما بدأ بالاحتواء انتهى بالإقصاء الكامل. وفي نقاط محددة أيضا يمكن فيما يلي استعراض بعض المحطات على سبيل المثال داخل هذا الخط:

أولا: أصدرت الدولة أول لائحة تنظيمية رسمية بشأن الطرق الصوفية عام 1903، تأسس على إثرها مجلس الطرق الصوفية، وكعادة المحاولات الأولى كانت تلك محاولة هادئة لتنظيم آليات اختيار وانتخاب مشايخ الطرق. لاحقا، في اللائحة الصادرة عام 1910 أصبح شيخ مشايخ الطرق الصوفية بما له من سلطة معنوية كبيرة يُعيَّن من قبل رئيس الدولة، وصولا لقانون عام 1976 الذي من خلاله أصبح المجلس الأعلى للطرق الصوفية يضم في عضويته ممثلين عن وزارة الأوقاف ووزارة الداخلية ووزارة الثقافة ووزارة الحكم المحلي وهو المسئول عن تعيين مشايخ الطرق، كما أصبح إنشاء أي طريقة جديدة يتم بقرار من وزير الداخلية ووزير الأوقاف بعد موافقة المجلس.

ثانيا: استُهدفت الموارد المالية المستقلة للمكونات المجتمعية بدءا من إنشاء ديوان عمومي للأوقاف عام 1938 تقتصر مهمته على حصر الأوقاف وضبط حساباتها وصولا لقانون عام 1953 الذي أعطى للدولة صلاحية إلغاء شرط الواقف والتصرف في الوقف كما ترى الدولة، إلى أن استُبدلت بأعيان الوقف عام 1957 سندات خزانة وضُمت أراضي الأوقاف لوزارة الزراعة للتصرف فيها. ما أدى في النهاية إلى تقويض قدرات المجتمع على الاحتفاظ بمؤسساته سالفة الذكر، وبالأخص شبكة علماء الأزهر التي تطور استهدافها هي الأخرى عبر مراحل عديدة يطول استقصاؤها، حيث بدأت بقيام محمد علي بإلغاء الأموال التي كانت توقف على علماء الأزهر في عام 1908 (إحباسيات الرزق)، ثم فصل القضاء الشرعي عن الأزهر عام 1910 وقانون منع الأزهريين من الاشتغال بالسياسة عام 1920 وامتدت لاحقا إلى أن صار منصب شيخ الأزهر مُعَيَّنًا من قبل رئيس الجمهورية في قانون تطوير الأزهر عام 1968.

خاتمة:
حاولتُ في السطور الماضية، بما تقتضيه محدودية المساحة، أن أرسم صورة أولية لحرب صامتة ممتدة حاولت فيها السلطة احتكار موارد إنتاج الثقافة والخطاب المعرفي والديني طوال عمليات تأسيسها، في ظروف اتسمت بالارتباط بالاستعمار من جانب وبالعلمنة من جانب آخر. هذه المسيرة لم يكن الناس فيها مجرد فاعل سلبي متلقي، بل ظلت محاولات المقاومة ممتدة أيضا على طول الخط، فطالما بقيت محاولات فرض الثقافة من أعلى قائمة بقيت محاولات المقاومة من الأسفل قائمة كذلك. أما صور هذه المقاومة الممتدة المتعددة ونتائجها فلها حديث آخر.

البتكوين وإعادة تعريف المال في عصر الحداثة

حسن إمام

مقدمة

أحدث البتكوين صخباً بعد تبني مؤسسات كبرى له في الآونة الأخيرة، مثل شركتا تسلا[1] و MicroStrategy. ما جعل قيمته تتجاوز 50 ألف دولاراً للبتكوين الواحد بعد أن بدأ منذ أكثر من 10 سنوات بأقل من سنت. هذا الشكل الجديد للمال يعيد نظرتنا إلى جذور فكرة المال في تاريخ البشر وما طرأ عليها من تغييرات آخرها في عصر الحداثة. نناقش في هذا المقال كيف تم إعادة تعريف المال في عصر الحداثة. وكيف ظهر البتكوين كرد فعل لهذا التغيير الذي أحدث كثيراً من الإضرابات المجتمعية وعدم المساواة.

المال والرأسمالية

على الرغم من تعدد أشكال المال عبر تاريخ البشرية، إلا أن وظائفه كانت ثابتة وواضحة؛ وسيط للتبادل ومخزن للقيمة. تربع الذهب على عرش المال لفترة كبيرة من تاريخ البشر. على الرغم من وجود أشكال أخرى للمال سواء كانت معادن مثل الفضة والنحاس، أو من الأحجار النادرة أو من صدف البحر النادر، إلا أن الذهب أثبت كفاءة عالية لتحقيق هاتين الوظيفتين[2]. ما ميز الذهب عن أشكال المال الأخرى هي نُدرته الناتجة عن صعوبة استخراجه، بالإضافة إلى استخدامه كحلي ودخوله في العديد من الصناعات.

---

[1] www.bloomberg.com/news/articles/202108-02-/tesla-trails-only-microstrategy-in-treasury-bitcoin-allocation

[2] Ammous. S.(2018).The Bitcoin Standard:The Decentralized Alternative to Central Banking (1st. ed.). Wiley Publishing.

حتى مع التطور التكنولوجي ظلت القدرة على استخراجه محدودة مهما زاد الطلب عليه. فأقصى طاقة إنتاجية يمكن أن تزيد المعروض منه بنسبة حوالي ٪1.5 فقط.[3]

أعادت الرأسمالية تعريف المال، فأصبح هناك النقد والمال. فالنقد هو ذلك الشكل التقليدي المذكور في الفقرة السابقة، والذي يسمى الآن البنكنوت banknotes وهذا لا يمثل سوى ٪3 فقط من حجم المال.[4] أما بقية الـ ٪97 فهي على شكل أرقام في السجلات الرقمية في البنوك. لكن كيف حدث ذلك؟! للإجابة على هذا السؤال علينا النظر إلى المال في الإطار الأوسع للاقتصاد الرأسمالي.

تتفق النظرة الرأسمالية في جذورها مع النظرة الحداثية للكون والحياة. وأكثر ما يعبر عنها مذهب المتعة Hedonism. فالإنسان كائن مادي يسعى وراء اللذة ويجتهد لدفع الألم. من أجل ذلك عليه إحكام السيطرة على الكون وموارده لاستغلالها لتحقيق أهدافه. موارد الكون نادرة ولا تكفي لإشباع رغباته، لذلك فالتنافس عليها ملمح أساسي من ملامح هذا الاقتصاد. هذه النظرة المادية النفعية انعكست على المنظومة الاقتصادية. فسعي الناس لإنتاج السلع والخدمات التي يحتاجها (الاقتصاد) يعتمد بالأساس على مبدأ النمو Economic Growth. أي أن معيار التقدم الاقتصادي هو زيادة القيمة السوقية للسلع والخدمات التي ينتجها الاقتصاد بمرور الوقت.

ولتحقيق ذلك، فالاستدانة هي جزء أساسي من عجلة الاقتصاد الرأسمالي. لكن المؤسسات التي تمتلك المال، البنوك، لا يمكنها القيام بهذه الوظيفة بما لديها من نقد محدود. لذلك ظهرت أشكال مختلفة من الديون، الائتمان Credit للأفراد والسندات Bonds، والضمانات الحكومية Securities. لا يتم تمويل هذه الأشكال من الديون بالنقد الموجود لدى البنوك، ولكن تقوم البنوك بخلق مال رقمي (٪97 من حجم المال كما ذكرنا آنفا) على سجلاتها الإلكترونية تعطيه للأفراد ليكونوا أقدر على الاستهلاك أو للمستثمرين ليقوموا بإنتاج سلع وخدمات أو للحكومات في حالة عجز الموازنة. ثم يقوموا بعد ذلك بتسديد هذه القيمة الوهمية مضاف إليها الربا (الفوائد). وبدون هذه الديون لن يحدث النمو الاقتصادي. يتم خلق هذا المال الرقمي وفق شروط وقيود من أجل ضمان استردادها.

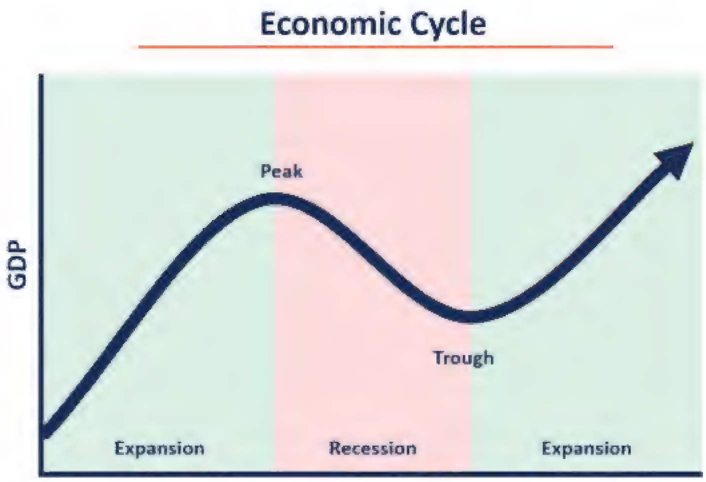

(الدورة الاقتصادية المصدر: corporatefinanceinstitute.com[5])

[3] المصدر السابق

[4] https://www.bankofengland.co.uk/knowledgebank/how-is-money-created

لكن بمرور الوقت يدخل الاقتصاد في حالة ركود Recession وهذا ما يسمى في الاقتصاد بالدورة الاقتصادية The economic cycle.
كما يظهر في هذا الرسم الفرضية الرئيسية هنا أن الركود هو جزء أساسي من النمو الاقتصادي يمكن احتواؤه في فترة زمنية معينة عن طريق محفزات وحلول مؤقتة حتى يستأنف الاقتصاد النمو مرة أخرى.
هذه النظرة للاقتصاد المدفوع بعمليات استدانة من رأس هرم المجتمع إلى قاعدته تعيد تشكيل المجتمع وتعرف أدواره. فلا يمكن تخيل استقرار هذه المنظومة الاقتصادية بدون عمليات استهلاك شره على المستوى الفردي، وكذلك عمليات إنتاج لسلع وخدمات تنمو مع الوقت تستهلك موارد كوكبنا وتنذر بكوارث غير مسبوقة. في هذا السياق تم إعادة تعريف المال ليصبح رافعة من روافع الاقتصاد. وبذلك تم تعديل وظائفه من وسيط للتبادل ومخزن للقيمة، إلى وسيط للتبادل ومخزن سيء للقيمة (القوة الشرائية للدولار أكثر عملة مهيمنة تقل بمعدل حوالي 2٪ كل عام[7])، ووقود لعملية الاستدانة القائم عليها الاقتصاد. إذاً لم تعد الندرة خصيصة أساسية من خصائص المال.[8]
راكمت المنظومة الاقتصادية قوى وقدرات عالية للدول الغربية الكبرى. كما جاءت معها أزمات اقتصادية مثل الكساد الكبير The Great Depression 1929، وأزمة الرهن العقاري 2008 وغيرها من الأزمات.

بالإضافة إلى عدم المساواة وتفاوت في مستويات المعيشة. يمتلك 1٪ من سكان الأرض 44٪ من ثرواتها[9]. هذه الأزمات وهذا التفاوت جعل عدم الثقة في المال الجديد يزداد، كما عزز النظرة التقليدية للمال وهي الندرة وليس الوفرة.

البتكوين والعودة للأصل:

أخذ المجتمع زمام المبادرة وقرر استخدام التكنولوجيا في إنتاج شكل جديد من المال وفق ما استقر في وجدانه عبر العصور. نوع جديد من المال يحمل أهم خصيصة فقدها مال اليوم وهي الندرة، بمعنى عدم القدرة على إنتاجه بسهولة. كانت مبادرة المجتمع عن طريق أحد الفاعلين خارج إطار بُنى الحداثة التقليدية، الدولة والشركة، إنها حركة سايفربنك Cypherpunk الأناركية.[10]

[7] www.officialdata.org/us/inflation/1800?amount=1#buying-power
[8] Modern Monetary Theory راجع نظرية النقد الحديث
[9] inequality.org/facts/global-inequality/
[10] الأناركية توجه يرى أنه يمكن للمجتمع أن ينظم نفسه بنفسه دون الحاجة لسلطة عليا. راجع
Wasserstrom, R. (1978) 'Comments On "ANARCHISM AND AUTHORITY".'. Nomos, 19, 111 - 114

ترى حركة "سايفربنك" أنه يمكن للمجتمع باستخدام التكنولوجيا أن ينظم شؤونه بعيداً عن سلطة الدولة، وكذلك يمكن إدارة فعالياته الاقتصادية بعيداً عن مؤسسة الشركة Corporation[11]. حلم استخدام التكنولوجيا للتأثير على حركة المجتمع بدأ قبل ظهور حركة سايفربنك بعقود،[12] لكنه تجسد في توجه وحركة اجتماعية على يد "تيموثي ماي" Timothy C. May عام 1988 حينما كتب مانيفستو التشفير الأناركي The Crypto Anarchist Manifesto. استهل "ماي" المانيفستو بقوله "شبح يطارد العالم الحديث، إنه شبح التشفير الأناركي" "A specter is haunting the modern world, the specter of crypto anarchy." شدد فيه ماي على استخدام تكنولوجيا الكمبيوتر والتشفير في إحداث ثورة اجتماعية واقتصادية من أجل تحرير المجتمع.

لم يلبث الأمر طويلاً حتى تبلورت هذه الشعارات والأفكار المجردة إلى أهداف أكثر وضوحاً وتحديداً على يد إريك هوز Eric Hughes، نص عليها في مانيفستو جديد تحت اسم "مانيفستو سايفربنك" "A Cypherpunk's Manifesto".[13]

حدد هوز أربعة أهداف رئيسية يجب العمل عليها من أجل تحقيق هذا المجتمع المفتوح. الهدف الأول هو "التشفير" لكي يتمكن أفراد المجتمع من تحقيق الخصوصية في تعاملاتهم دون التجسس عليهم من الدولة، من أجل السيطرة، أو الشركة، من أجل مُعاظمة أموالها. الهدف الثاني هو "بريد إلكتروني مشفر" من أجل خصوصية المراسلات. الهدف الثالث هو "التوقيع الرقمي" من أجل موثوقية التعاملات. آخر هدف هو "المال الإلكتروني" "electronic money".[14]

[11] May, T. (1988) 'The Crypto Anarchist Manifesto' www.activism.net/cypherpunk/crypto-anarchy.html.
[12] Narayanan, A. (2013) 'What Happened to the Crypto Dream?' IEEE Security & Privacy 7576-.
[13] Hughes, E. (1993) 'A Cypherpunk's Manifesto' www.activism.net/cypherpunk/manifesto.html.
[14] المرجع السابق

لم يكن صعباً من الناحية الفنية تحقيق أول ثلاثة أهداف من هذه الأربعة، فكل من التشفير والبريد المشفر والتوقيع الإلكتروني تم تطويرها بنجاح. كذلك لم يكن هناك عائق من ناحية الثقافة المجتمعية أن يتقبل المجتمع هذه الابتكارات ويدمجها في استخداماته اليومية. لكن تحقيق الهدف الرابع بإنشاء عملة إلكترونية، تنطلق من الإنترنت كمنصة عامة، واجه صعوبات فنية وثقافية على حد سواء. على مدار 15 عاماً، منذ تأسيس الحركة عام 1993 إلى ظهور البتكوين عام 2008، طُورت كثير من المحاولات لتحقيق هذا الهدف لكنها لم تنجح حيث جسدت العوائق الفنية وعدم القبول المجتمعي التي تواجه تحقيق عملة إلكترونية.

طريق الحل يبدأ بمراجعة الثوابت

على الرغم من أن العالم الرقمي، الإنترنت، مبنى على مبدأ التدفق الحر للمعلومات، The free flow of information، إلا أن هذا التدفق لا يمر إلا عبر وسيط يقدم لك الخدمة. فيمكن لأي شخصين تبادل المعلومات عبر الإنترنت لكن لابد من وسيط يتسلم المعلومات من المرسل ليعيد إرسالها إلى المستقبِل.

يسمى هذا بنموذج الخادم-العميل The client-server model.

تعتبر الشركة في معظم الحالات مقدم الخدمة أو الوسيط الذي يتم من خلاله نقل المعلومات بين الأطراف. إذاً، على كل من يريد استخدام الإنترنت في تقديم خدمة أو تنفيذ مشروع ما أن يبدأ من مُسلمة أنه وسيط ينبغي أن تمر من خلاله ما يتم تداوله بين المستخدمين . لا يمكن البناء على هذا النموذج لإنشاء عملة رقمية وذلك لسببين رئيسيين. الأول أنه مخالف لمبادئ الحركة الأناركية التي لا تؤمن بسلطة الشركة في تنظيم الفعاليات الاقتصادية. والثاني مخالف لفكرة الندرة في المال، إذ حتى لو أرادت أن تأخذ المؤسسة الوسيطة شكل غير الشركة الرأسمالية، مثل جمعية عامة، فستظل وسيط له اليد العليا في إنتاج الكميات التي يريدها من العملة الجديدة، ومن ثم لن يكون هناك فرق جوهري بينها وبين المال التقليدي من حيث تدني قيمته مع الزمن لذلك النموذج الفني الذي يعتمد على وسيط، والمؤسسي الذي يعتمد على هيكل الشركة لبنية الإنترنت التقليدية لا يمكن استخدامهم في إنشاء عملة.

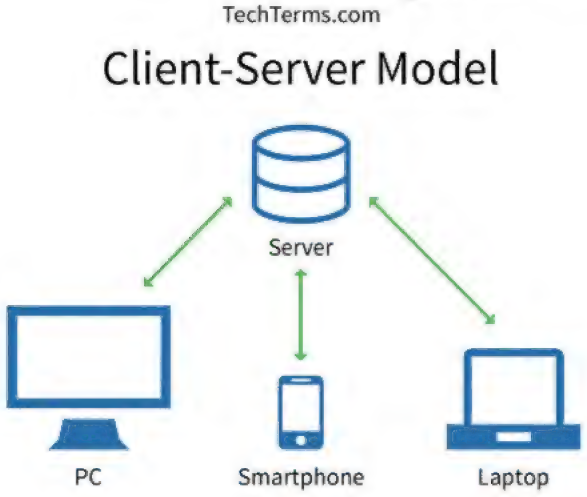

[15] ظهرت نماذج أخرى مثل Torrent وغيرها لكنها لم تحقق نجاحاً كبيراً وواجهت تحديات قانونية ومخالفات حقوق ملكية حدت من انتشارها والبناء عليها. راجع:

De Filippi, P., Wright, A. (2018).
Blockchain and the Law: The Rule of Code. Cambridge, Massachusetts; London, England: Harvard University Press.

لم تهدأ هذه المحاولات على مدار عقد ونصف لحل هذين السببين وغيرهما من التحديات. محاولات تسعى لتحقيق أهداف غير أهداف وادي السيليكون Silicon Valley، قلعة الابتكارات التكنولوجية الرأسمالية الحصينة، وإن كانت تستفيد وتستمد قوتها منه ومن مناخه المفتوح[16]. وتسعى أيضاً في غير اتجاه المؤسسة الأكاديمية، وإن كانت تستفيد من الرصانة العلمية والمجتمع البحثي[17]. المرونة والإخلاص للهدف جعل هذه الفترة فترة مراكمة لخبرات وتجارب تُمكِّن من يأتي بعدها أن يبني عليها.

على أحد أكبر المنصات المهتمة بتشبيك وتسهيل عمل شبكات اجتماعية منظمة، وتسمى "P2P Foundation"[18] قام شخص مجهول الهوية عرف نفسه بساتوشي ناكاموتو"Satoshi Nakamoto" في أكتوبر 2008 بإعلان أنه يعمل على نظام صرف آلي يعمل بالكامل بين طرفين فقط بدون طرف ثالث وسيط[19]. ما فعله ناكاموتو أنه استفاد من التراكم النظري والعملي، وابتكر تكنولوجيا جديدة "بروتوكول" سُمي Blockchain لاستخدامها كنظام مصرفي آلي لعملته الإلكترونية الوليدة بحيث يمكن عبره نقل المال بين شخصين دون طرف ثالث ضامن كالبنك في حالة المال التقليدي.

تغلب ناكاموتو على أكبر معضلتين واجهتا من سبقه، النموذج الفني الذي يجعل بنية الإنترنت قائمة على وجود وسيط مركزي كمقدم لكل خدمات الإنترنت. والنموذج المؤسسي لهذا الوسيط الذي يحظى باليد العليا للتحكم في إنتاج المال وبالتالي على أهم خصيصة له وهي الندرة.

لكي يتغلب ناكاموتو على معضلة النموذج الفني لبنية الإنترنت، لم يعتمد على نموذج الخادم-العميل Theclient-server model الذي ذكرناه، لكنه اعتمد على نموذج الند للند الشبكي[20] Peer-to-Peer model. فبدلاً من أن تنتقل المعلومات من المرسل للمستقبل عبر وسيط مركزي (مقدم الخدمة)، ستنتقل من المرسل إلى المستقبل عبر شبكة من المتطوعين بأجهزتهم الحاسوبية. وبدلاً من اتخاذ القرار في الشركة بشكل مركزي في نموذج الخادم العميل، اعتمد ناكاموتو في تصميمه عملية الإجماع Consensusبين المشاركين لاتخاذ القرار[21]. يبرز هنا سؤال هام، تقوم الشركة بدور الوساطة لتقديم الخدمات على نموذج الخادم العميل من أجل المال، فلماذا يقوم المتطوعون باستخدام أجهزتهم وإنفاق الوقت والمال[22] في نموذج الند للند؟

[16] معظم المطورين كانوا جزء من مجتمع وادي السيليكون أثناء عملهم.
راجع مراسلات تيموثي ماي مع زملاؤه والذي كان مهندساً في شركة إنتل Intel حتى سن 35 عاماً ثم تقاعد منها عام 1986. كمثال:
www.activism.net/cypherpunk/crypto-anarchy.html

[17] استفادت الحركة من المؤتمرات العلمية وقدم أعضاءها أوراقاً بحثية فيها. راجع الرابط في المصدر السابق.

[18] https://p2pfoundation.net/

[19] مراسلة من ناكاموتو في العاشر من أكتوبر عام 2008 إلى المشاركين في القائمة البريدية الخاصة بالتشفير

[20] Schollmeier, R. (2001) 'Definition of Peer-to-Peer Networking for the Classification of Peer-to-Peer Architectures and Applications' Proceedings of the First International Conference on Peer-to-Peer Computing, IEEE 101–102.

[21] Nakamoto, S. (2008) 'Bitcoin: A Peer-to-Peer Electronic Cash System'. https://bitcoin.org/bitcoin.pdf

[22] يجب تشغيل أجهزة الحاسوب المشاركة في الشبكة على مدار الساعة.
وهذا يترتب عليه استهلاك طاقة كهربية مكلفة مع عمليات صيانة دورية للمحافظة على استمرارية عمل الحواسيب دون انقطاع من أجل استمرار الخدمة.

في حالة نموذج ناكاموتو المقترح، البتكوين، يشارك المتطوعون بأجهزتهم الحاسوبية ليحصلوا على مكافأة مالية تتمثل في أمرين. الأول عند إرسال عملة بتكوين من طرف لآخر سيحصل المشاركين على رسوم تحويل. الثاني سيكافأ بعدد من العملات الجديدة من البتكوين نظير خدمتهم للشبكة وهذا ما يسمى التعدين Mining.[23]

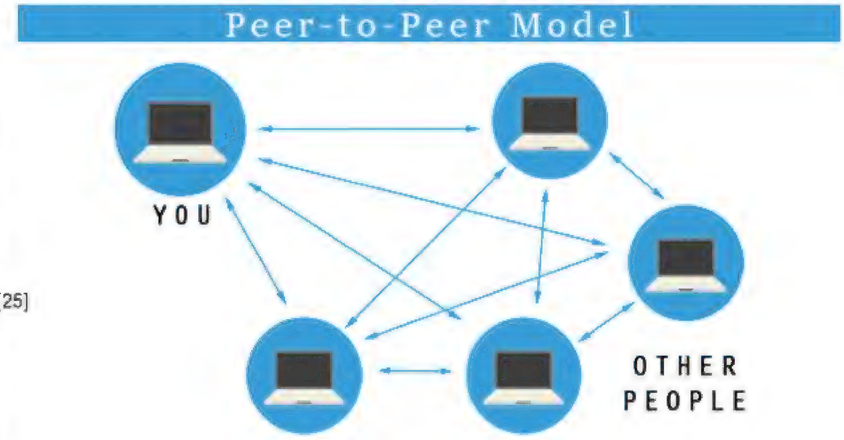

نموذج الند للند. (المصدر: www.skalex.io)

يبقى هنا سؤال هام، كيف ستتحقق الندرة لعملة البتكوين وفي كل تحويلة يتم إنتاج أعداد منها لمكافأة المشاركين؟ وضع ناكاموتو معادلة مفادها أن عملية صك عملات جديدة ستبدأ ببداية إطلاق شبكة البتكوين في 2009م بأعداد كبيرة نسبياً، 50 وحدة بتكوين لكل تحويلة، ثم تقل عملية الصك للنصف كل حوالي أربع سنوات، لتصبح 25 وحدة بتكوين لكل تحويلة في 2012م ثم 12.5 وحدة في 2016م، ثم 6.25 وحدة في 2020م،

وهكذا حتى يقل المطروح مع الوقت وتنتهي عملية التعدين حوالي سنة 2140م. وحينها، لن يتبقى كمكافأة مالية للمشاركين في الشبكة غير عمولة التحويل فقط،[24] ولن يتم إنتاج أي وحدات جديدة من عملة البتكوين، والتي سيكون عددها حينها 21 مليون وحدة، مهما زاد الطلب عليها. في يناير عام 2009 أطلق ناكاموتو شبكة البتكوين. وفي أول تحويلة قام بها على الشبكة اختار ناكاموتو عنوان صحيفة The Times البريطانية والذي يقول "Chancellor Alistair Darling on brink of second bailout for banks Billions may be needed "as lending squeeze tightens [25] "المستشار أليستير دارلينج[26] على وشك الإنقاذ الثاني للبنوك، قد تكون هناك حاجة إلى المليارات مع الضغط الشديد للإقراض". حور ناكاموتو بعض الشيء في العنوان وكتب: "The Times 03/Jan/2009 Chancellor on brink of second bailout for banks"[27]، "التاريخ 3 يناير 2009، المستشار على وشك الإنقاذ الثاني للبنوك". في رسالة على إثبات موعد إطلاق الشبكة من جهة، ومن جهة أخرى رسالة رمزية على رفض سياسيات النظام المالي للرأسمالية.

[23] Nakamoto, S. (2008) 'Bitcoin: A Peer-to-Peer Electronic Cash System'. https://bitcoin.org/bitcoin.pdf

[24] المصدر السابق.

[25] www.thetimes.co.uk/article/chancellor-alistair-darling-on-brink-of-second-bailout-for-banks-n9l382mn62h#:~:text=Alistair%20Darling%20has%20been%20forced,failed%20to%20keep%20credit%20flowing.

[26] المستشار Alistair Darling وزير الخزانة البريطاني آن ذاك.

[27] https://en.bitcoin.it/wiki/Genesis_block

خاتمة

لأول مرة في تاريخ الحداثة يُنتج المجتمع باستخدام التكنولوجيا المال بعيداً عن سلطة الدولة الحديثة وبُناها المؤسسية. لم تستخدم البُنى المركزية للحداثة من شركات هادفة للربح أو منظمات غير ربحية، ولكن ابتكر كياناً جديداً قائم على القيادة بالفكرة، والتشغيل التنفيذي بواسطة شبكات موزعة يمكن المشاركة فيها في أي وقت كما يمكن الخروج منها أي وقت أيضاً. والدافع للمشاركة قيمي من حيث الإيمان بالفكرة ومصلحي من حيث التكسب المادي المباشر من المشاركة. لا يمكن القول إن شبكة البتكوين التي تقدر بملايين الدولارات وتعمل على مدار الساعة ويشارك في تشغيلها والاستفادة منها آلاف البشر، لا يمكن القول إنها منظمة أو شركة أو مؤسسة غير حكومية بالمعنى التقليدي.

بل هي منظومة مال جديدة بعيدة عن الدولة وبُنى الحداثة التقليدية.

نجاح المجتمع بواسطة أحد الفاعلين، التيار الأناركي، في البناء على تكنولوجيا قديمة لإنشاء تكنولوجيا جديدة بهدف إنتاج نوع جديد من المال نجاح لا تخطئه عين. لكن هذا النجاح ينتظر التكامل والبناء عليه وإلا فالاحتواء ينتظره ليستوعبه ويدمجه في المنظومة الرأسمالية كأحد أدواتها. أيضاً، لا يمكن للمال الجديد فقط أن ينشئ تصوراً اقتصادياً كلياً مغايراً للاقتصاد الرأسمالي. لكنه محفز للطاقات فيُعلي من خصوبة العقل وهمة النفس للتفكر والسعي في تطوير اقتصاد يحقق القيم العليا لفاعلي الأمة في مختلف الأقطار.

عقد على ثورة يناير: انتظار ما لن يأتي

محمود العناني

عقدٌ على ثورة الخامس والعشرين من يناير، ورغم مُضي السنين إلا أننا مازلنا نواجه ذات الأسئلة المتكررة التي أضحت شبه مقررًا سنويًا، يعرض علينا في مناسباتٍ كتلك، خصوصًا منذ عزل الرئيس الراحل محمد مرسي، حيث دخلت البلاد فترةً هي الأقسى في تاريخها، مذبحةٌ هي الأبشع في التاريخ الحديث،[1] عدد السجناء السياسين هو الأكبر على الإطلاق منذ تأسيس الجمهورية عام 1952 وسجون لا حصر لها تبنى كل يوم،[2] أحكام إعدام سياسية في سبع سنوات تتجاوز الأحكامَ التي أصدرتها دولة مبارك البوليسية في أكثر من ثلاثين عامًا حكمت فيها.[3]

واقع سياسي واجتماعي واقتصادي لم تشهد له البلاد مثيلا منذ عقود، وهو ما يطرح أسئلة من نوعية: ماذا لو؟ متى؟ مَن؟ وكيف؟! وغيرها من علامات الاستفهام التي تحمل مرارة السؤال وانعدامٍ الإجابة في الوقت ذاته، فماذا لو لم نسلِّم الجيش مقاليد الأمور بعد 11 فبراير؟ ولو لم يصل مرشح جماعة الإخوان المسلمين للحكم؟ ولو لم تدعم قطاعات سياسية واسعة التدخل العسكري لإزاحة الخصم السياسي؟ والأهم من وجهة نظر أغلب المتناحرين؛ متى يهُب الناس للثورة؟

أسئلة تبحث عن الإجابات:

لم ينجح منتسبو المجموعات السياسية في مصر، في الإجابة على أي من تلك الأسئلة

---

[1] حسب الخطة، هيومن رايتس ووتش، 12 أغسطس 2014

[2] هناك متسع للجميع ... سجون مصر قبل وبعد ثورة يناير، الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، 5 سبتمبر 2016

[3] القمع في مصر من مبارك إلى السيسي، مجلة صدى كارنيغي، ماجد مندور، 11 أغسطس 2015

التي استهلكت سنوات من الخصوم في تجاهل، غير متعمد، على أحسن تقدير، لأهمية التحول الذي حدث بسقوط حسني مبارك، منتظرين تكراره دون حراك، كأن التاريخ يجب أن يعيد نفسه وكأننا يجب أن نعيش 2011 مرة ثانية، وكأن الثورة لا يجب إلا أن تكون بحذافير ما حدث، وكأن مبارك لم يسقط نتيجة حراك طويل بدأ مع الألفية الجديدة نتيجة السياسات الاقتصادية التي نجحت في وضع مصر ضمن مصاف الدول الأكثر فقرًا لعقود،[4] والإجراءات البوليسية التي عاشها كل المصريين نتيجة سطوة جهاز أمن الدولة على كل وأي شيء.

الغريب في القصة السابقة أن أولئك الذين تجاهلوا كل هذا، كانوا بالأساس صناع الثورة ضد مبارك، وانتشروا في الشوارع لسنين، واضعين الأسس التي أهلت المجتمع لرحيل دول مبارك.

على مدار سنوات منذ الانقلاب، سادت التوقعات بالغضب العارم من السياسات الاقتصادية، خصوصًا مع انتشار دعوات ما أطلق عليها ثورة الغلابة، لكن كانت نتيجة انتظار قيام الحراك، هي اللاشيء، حيث تجاهلت هذه المجموعات السياسية تأثير القبضة الأمنية في نفوس الناس، فاليمين واليسار والوسط كلهم في السجن والقتل خارج نطاق القانون وصل لمعدلات مقلقة،[5] وتبرره الدولة من خلال ماكينتها الإعلامية في كل الأحيان، حتى أصبح خيار الموت على فراش الجوع، إجابة أكثر منطقية من الموت في تظاهرة، أو السجن والتنكيل.

تكرر السيناريو ذاته مع توقيع السلطة في مصر على اتفاقية التنازل عن جزيرتي تيران وصنافير للسعودية، وهي الخطوة غير المسبوقة في تاريخ الأنظمة السياسية المتعاقبة، حتى أن سفير السعودية السابق لدى مصر وجامعة الدول العربية أحمد قطان، قال إن مبارك نفسه ظل يماطل لسنوات دون الاستجابة للمطالبات السعودية المتكررة باستعادة السيطرة على الجزيرتين،[6] وهو ما يمثل حجم السابقة التي أقدمت عليها دولة السيسي، في ظل ما تمثله "الأرض" في المخيال الجمعي المصري من أهمية بل وحتى قدسية صنع عنها الأفلام وكتبت فيها الروايات، خصوصًا ما تمثله تلك المناطق التي قاتل عليها المصريون واستشهد وأصيب منهم على ترابها ورويت عنهم قصص البسالة والحرب دفاعًا عنها، ورغم وجود حالة من عدم الرضى داخل جناح الدولة، تجلى أبرزه في حكم محكمة القضاء الإداري بمصرية الجزيرتين، إلا أن حراك تيران وصنافير، قد مرَّ، إلا من عشرات المعتقلين الذين حكم عليهم بالسجن والغرامة بتهمة التظاهر.

انتظار البطل المُخلص أو علي الزِّيبق.

استجلاب الثورة لا ينتهي، فمع النقاش المجتمعي الواسع التي حدث مع خروج المقاول والممثل محمد علي معلنًا عن حجم الفساد داخل المؤسسة العسكرية،

[4] الصندوق الدولي للتنمية الزراعية التابع للأمم المتحدة، يونيو 2004.

[5] الإعدامات غير المرئية في مصر، مجلة صدى كارنيغي، ماجد مندور، 25 أبريل 2019.

[6] أحمد قطان، برنامج في الصورة، روتانا خليجية، 2 مارس 2021.

[7] هزيمة يونيو المستمرة (8): بحق الدم، تيران وصنافير مصرية، د. خالد فهمي 11 يونيو 2017.

وحكايات إهدار المليارات على قصور واستراحات رئاسية، ما استرعى آذان الملايين الذي يعيش أكثر من ثلثهم تحت خط الفقر، حينها.[8] وفي أثناء رفع الدعم عن أبسط احتياجاتهم كالخبز والمواد الحارقة، يهدر الرئيس صاحب مقولة "فقرا أوي"[9] المليارات على تلبية طلبات زوجته وأولاده في القصور والاستراحات.

كانت هناك حالة غضب حقيقية مما أخبر المقاول العالم به، والأكثر من ذلك هو حالة الاستغراب التي سادت، بعد تبجّح السيسي ببناء القصور، معلنًا أن "بَنَى وسيَبْني"، في تحدٍ غريب للمواطن الفقير الذي يعيش يومه بأقل من 20 جنيهًا، وهو ما استدعى بالتأكيد، انتظار هذه المجموعات أيضًا لهبة شعبية ضد الفقر والجوع والأجندة الاقتصادية وتبجح الرئيس والقمع، وكل المساوئ التي يعيشها المواطن اليوم، ورغم أن الحراك كان فريدًا من نوعه منذ وصول السيسي للحكم عام 2014، إلا أنها كانت موجة لم يستطع أحد البناء عليها أو استثمارها بشكل عاقل بعيدًا عن التشنجات أو الآمال الوردية، حتى أن هذه الموجة نفسها، رغم خصوصيتها الشديدة، في سياقها الزمني وواقعها الاجتماعي، إلا أن المجموعات المعارضة حاولت تكرارها أيضًا، علي نفسه حاول تكرارها وفشلت فشلًا ذريعًا محى معه نجاح الحدث الأول.

العامل المشترك في كل ما حدث، هو أن المعارضة فشلت في استنساخ يناير،

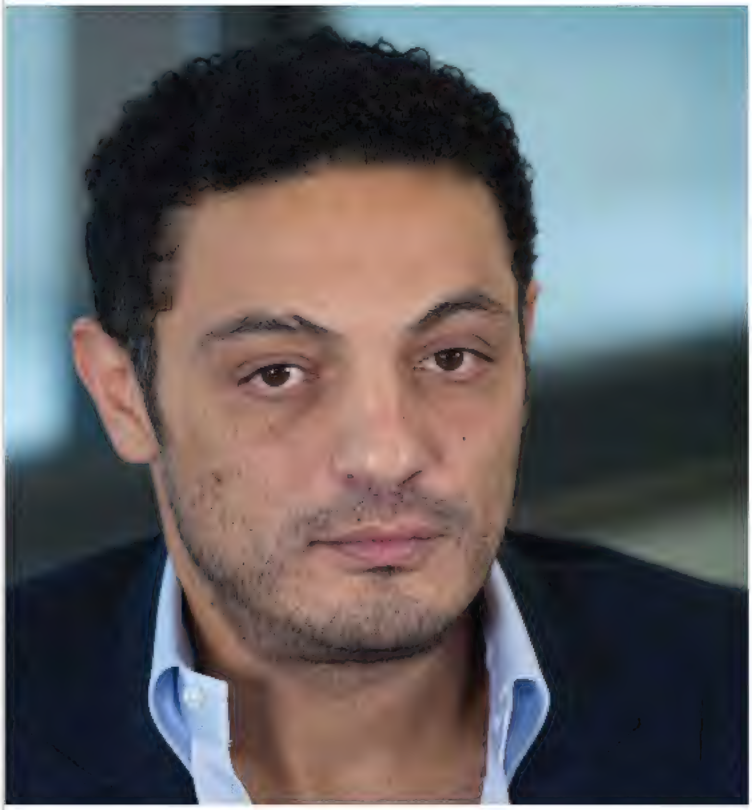

فحاولت استنساخ أي حدث مشابه ولو شبهًا عَرَضيًا لثورة يناير، وفشلت في ذلك أيضًا، وهو ما يدفعنا لتغيير السؤال هذه المرة من أسئلة إجاباتها في الماضي، لسؤال قد نحمل إجابته معنا في الحاضر، ماذا يمكننا أن نفعل إذن، ليس لإعادة تخليق يناير مرة أخرى، بل لإحداث تغيير، للتفكير مرة أخرى أن هناك تحولًا ديمقراطيًا نستحقه ودفعت بالفعل من أجله البلاد الثمن غاليًا. وهذا لا يعني أبدًا أن نهمل التاريخ أو لا نستلهم منه، بل نفعل ذلك لكن وأعيننا على الواقع، لا على الماضي الضائع.

وهنا، لن أضرب المثل بتجارب التحول الديمقراطي في بلدان غير مصر، رغم الدروس التي يجب علينا تعلّمها لأهميتها. لكن ستكون الإجابات ذات طابع مصري، حتى تكون الصورة واحدة.

[8] الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء، بحث الدخل والإنفاق والاستهلاك لعام 2017 - 2018.

[9] عبدالفتاح السيسي، مؤتمر ابدع - انطلق، 28 يناير 2017.

كسر السيطرة

تحاول السلطة في مصر، السيطرة على وعي المجتمع بشتى الطرق، التلفزة والراديو يسبحان يوميًا بحمد السلطة دون نقد، جرائد ووسائط مقروءة لا تكتب حرفًا ليس على هوى السلطة، ويبقى الانترنت وهو المجال الذي ما تزال تحاول السلطة السيطرة عليه وتحجيمه أو إخافة الناس على الأقل من ممارسة حقوقهم في التعبير عن آرائهم من خلاله، ومع التطور التكنولوجي الواسع الذي يعيشه العالم، وأدى بالتبعية لهبوط أسعار الهواتف النقالة وأسعار استخدام الانترنت، لا تجد اليوم من لا يمتلك طريقةً (Access) للوصول للمعلومة، للخبر، للفكرة. كما ساعد هذا التطور إلى خلق ملايين الوسائط والتطبيقات التي تقرِّب الجمهور، وبفكرة ذكية وأسلوب مقبول وإمكانات بسيطة تستطيع إحداث تغيير حقيقي للأفكار والتوجهات، أو على الأقل تكون محفزًا للتفكير في ذلك.

عمد النظام لإغلاق المجال حتى على القوى المجتمعية غير المشتغلة بالسياسة،[10] الجمعيات الأهلية ومؤسسات دعم الفقراء وذلك لعلمه بمدى التأثير الذي قد تصبح عليه هذه المؤسسات لتكون حجر أساسٍ في مواجهته مع الشعب، أو على الأقل تسحب من رصيد تحريضه على القوى الرافضة له، فلا تنسى جمهورية الضباط، الدور الهام الذي لعبته اليسارية اليسارية لسنوات في دعم قضايا العمال في أقاليم مصر،[11] من المحلة لوادي النطرون، محاولين توفير بيئات عمل آدمية لهم، تلك المجموعات العمالية أضحت فيما بعد قوةً ضاربة في الحراك ضد مبارك، وهو ما لا ينساه رئيس المخابرات الحربية الأسبق، الذي لا ينسى أيضًا الدور الذي لعبته المؤسسات الأهلية المدعومة من التيارات الإسلامية، التي ساعدت لسنوات آلاف الأسر، من تكافل اجتماعي وعلاج بالمجان وحتى مساعداتٍ علمية للطلاب المتفوقين، الذين صاروا فيما بعد كوادر لهذه التيارات، وشاركت في موجات الحراك ضد مبارك من الأقاليم حتى الجامعات. وهي التحركات الاجتماعية، التي من الغريب على قوى المعارضة تجاهلها، طبعًا مع التأكيد على تفهم حالة القبضة الأمنية المسيطرة والتي تمنع حدوث أي تحرك خارج إطار الكيانات التي تنظمها الدولة. لكن لو لم تكن للمعارضة مخططًا لكسر حالة الاحتكار هذه، فما الخطة التي لديها إذن؟

[10] قمع المجتمع المدني في مصر، هيومن رايتس ووتش، 14 فبراير 2019.

[11] اليسار في مصر: حدوده وآفاقه في عالم 2011، علي الرجال، جريدة السفير، 4 يناير 2019

استثمار الفراغ الإعلامي

تمتلك بعض قوى المعارضة في الخارج قنوات إعلامية ذات قدرة واسعة على الوصول، ولديها تحالفات مع إداراتِ قنوات أخرى، لكن الواقع القائل بأن هذه المؤسسات تحظى بمشاهدة[12] عالية، لكنها غير ملحوظة التأثير، والأمر مرهون هنا بجودة الرسائل التي تبثها هذه المنصات.

ولا يمكن هنا نفي بعض المحاولات الرامية لأداءٍ إعلامي موضوعي ذا منطقية، لكن الأغلب يسعى خلف التشهير وملاحقة "الترندات\الموضوعات الرائجة" والتندر بعدد المشاهدات، ورغم أهمية هذه الأرقام، لكنها لا يجب أن تكون الهدف الأوحد لهذه القنوات، فزيادة عدد المشاهدين لا يعني أبدًا القدرة على التأثير. وهي معادلة ليست بالصعبة، فأي دارسٍ للإعلام وتأثيراته، يمكنه معاينة الفرق، تحتاج أن تقوم بالموازنة، أن رسائلك على بساطتها يجب أن تكون مهمة ومتوازنة، ألا يتجاهل أو يعادي أي قطاع مجتمعي مهما مثَّل لك هذا القطاع من اختلافٍ في الرؤية والتوجه، ومن هنا تستطيع بدء الخطة الموازية لدحض خطاب النظام، وتثبيت ما تطمح له، من تغيير وعدالة وحرية، عليك فقط إعداد العُدَّة دون كذِب أو صراخ، واترك حينها الحكم لمن يبحث عن الحقيقة. لأنه علينا أن ندرك، أن المواطن المصري سأم من رسالة الـ "سامسونج" الموحدة، التي يبثها إعلام القاهرة، وأصبح في حاجةٍ ماسَّة لصوتٍ مختلف، ولهذا يسعى النظام جاهدًا لتحجيم عمل هذه القنوات.

ومن خلال تطويع الانترنت وأدواته الحديثة، وإعادة تموضع خطابك داخل المجتمع، وإظهار أحقية ما تطالب به في مقابل ما يدَّعيه النظام، حينها فعلًا قد تكون قادرًا على النقاش حول سؤال الثورة، متى ستحين؟

[12] أبحاث شركة إبسوس لقياس الرأي العام، مصر، أعوام 2016 و2017.

زيف الصورة وإدمان الاستعراض

كريمة الصيرفي

على تطبيق شهير لمشاركة الصور نشرتُ صورة جميلة لمشهد الغروب، مع اقتباس عميق عن التفكر من أحد كُتابي المفضلين. صورة من بين عشرات الصور التي التقطتها لنفس المشهد -لاختيار أفضلها فيما بعد طبعا- والحق أني دهشت حينها، إذ لم اتوقف للتفكر ولو لثواني، بل حتى لم أتأمل المشهد خارج إطار الجوال بألوانه الحقيقية وتفاصيله الساحرة والتي تفوق قدرات عدسة الجوال على التقاطها! لا أعلم لماذا حضرتني حينها صورة بعيدة لجدتي من أمي، وكيف كانت رحمها الله تعرف مواقيت الصلاة من النظر للسماء إذ أنها كانت تربطهما بحركة الطيور، والتي كانت تغار منهم لكثرة تسبيحهم، كأنها معهم في سباق! هذا النظر المتكرر للسماء أورثها حقيقة الشعور بالصغر أمام نسق هذا الكون الفسيح.

لا أعلم في الحقيقة إن كانت جدتي قد تلقت أي تعليم لكني أعلم -بلا شك- أنها لم تسمع يوما بمثل الكاتب الشهير الذي اقتبست منه مقولة التفكر.

في حديث قديم جمعني بقريبة لي بعد زفافها أذكر تحديدا مدى انزعاجها من رغبة المهنئين لرؤية تفاصيل بيتها، لا أعلم كم مر من الوقت وماذا تغير حتى أراها اليوم وقد أصبح لديها قناة على موقع شهير تعرض فيه نمط حياتها بتفاصيله، حتى صرنا نعلم كم كأسا للماء لديها وما تفاصيل أثاث بيتها! التفاصيل التي أزعجها يوما أن يطلع عليها زائرون هم بطبيعة الحياة سيعرفونها بتكرار الزيارة، تشاركها هي الآن على الفضاء الالكتروني لغرباء بالكلية، لا تجمعها بهم أي صلة غير أنهم مستخدمين لنفس التطبيق!

ابنك الذي يتململ من محاوطتك له بالسؤال كلما هم بالخروج أو بالإياب.. هو نفسه الذي يشارك بالصوت والصورة خروجاته تلك مع غرباء من كل حدب وصوب على حالاته الشخصية في "استوريهات" مواقع التواصل.

وقبل أن أسهب في ذكر عشرات الأمثلة التي تحضرني استدلالا على تمكن الاستعراض منا، فأنا أدعوك بنفسك لأن تبحث في هاتفك عن تلك الصور التي شاركتها وقد اتخذتها في سياق بعينه تظهر نمط حياة محبب. وإن كنت فتاة فابحثي معي عن الصور التي شاركتها لكن بعد تعديل وتطبيق الفلاتر التي تجعلنا نبدو أجمل أو أصغر. أما إن كنت أمّاً فلنبحث سويا أنا وأنت عن تلكم الصور التي شاركناها ليس لشيء غير أنها تظهرنا أمهات رائعات نقوم بالأنشطة مع أطفالنا ونتبع أسلوبا معينا وراقيا في تربيتهم. فضلا عن الحالات التي شاركناها لمفكرين لا ندري عن أفكارهم غير نسبة تلك الكلمات لهم على الحقيقة، فربما شارك بعضنا انبهاره ببعض الكتّاب أو المفكرين ولم يتم لهم ولو كتابا واحدا. وكم صادفتنا منشورات وحالات كتبت بكلمات بلّونية لتوحي أنها من عقل خبير، بينما كاتبها لا يزال على أول عتبات المعرفة.

تخوفات الاستعراض في ميزان القيم الإسلامية:

مخافة العجب: بينما تدفعنا منصات التواصل إلى حصد الإعجابات لما نفعل، نجد في الإسلام أن إعجاب المرء بنفسه هو فعل مستقبح مذموم يورده المهالك وتأتي النصوص تحذر منه، يقول الله عز وجل في سورة لقمان ﴿**وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ18**﴾ ونصوص أخرى تعالج وتبين حقائق النفس حتى تنضبط فلا تتضخم ولا تزهو ﴿**قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ17 مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ18 مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ 19**﴾ وبينما تلح علينا المنصات المختلفة بالتباهي بما نفعل وبمن نكون. يقول نبينا ﷺ: **"وأما المهلكات: فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه"** وفي رواية أخرى للحديث يصرح فيها عن خطورة العجب فيقول "وهي أشدهن". وإذ تسهل عليك المنصات طريق التصدر والشهرة الزائفة يكتب أحد السلف إلى أخيه" لا أذاقك الله طعم نفسك فإن ذقتها لا تفلح". فحين يشعرك عداد المشاركات وزيادة المتابعين وانهمار الإعجابات بخيَلة وعجب أحيانا، تأتيك الآيات كالدواء تذكرنا وتحذرنا بمعان نفسية مهمة، تدبر قوله وخطابه عز وجل ﴿**وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا37 كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا 38**﴾"

مزلق اللسان المتكلف: ليس بالغريب علينا على هذه المنصات اشتهار الكلام المنمق وتكلفه، بل ويتطرق البعض إلى انتقاء الغريب من القول ليظهر بمظهر المثقف العميق، ذاك الذي لم تأخذه ثقافته تلك إلى حديث النبي صلى الله عليه وسلم "إنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ البَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ البَقَرَةُ". ناهيا عن التكلف الزائد والإغراب المتكلف وعدم البيان. وهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "ما أنت بمحَدِّثٍ قومًا حديثًا لا تبلُغه عُقولُهم إلَّا كان لبَعضِهم فِتنةً" فالعجب كل العجب من تحول تلكم القنوات إلى مواقع للتعالي لا للتواصل!

إشكال طغيان المظهر: يهتف بك المحتوى الذي تتعرض له على هذه المنصات ليل نهار بتوجيه اعتنائك بالظاهر وإشغال فكرك بتزيينه والاهتمام المبالغ به متمثلا في: مأكل، ملبس، جسد... فيجعله يقفز إلى أولى أولويات سلم اهتماماتك مخالفا بذلك أولويات القيم في الإسلام "إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" ولا يخفى على عاقل المشكلات النفسية الناتجة عن طغيان المظهر على حساب الجوهر من مقارنات التحاسد وكفران النعم وزيادة النزعة الاستهلاكية بل واختلال معيار القيمة نفسه في الجمال والغنى والرضا وغيرها من القيم.

مخافة الوقوع في الشرك الخفي: يقول الله عز وجل ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ**106﴾ أمام هذه الآية يفسر العلماء معنى الشرك هنا بأن يرى الانسان من ذاته شيء فيستعظمها. هذه التصورات لما حضرت عند الصحب الكرام دفعت الصديق أبو بكر لإخافة أمنا عائشة لما وقفت بردائها الجديد وقفة استحسان قائلا: " أما تعلمين أن الله ليس بناظر إليك!". نفسها القيم جعلت الفاروق يتسلم مفاتيح القدس برداء مرقع ولا يبالي. هي ذاتها القيم التي دفعت عمر بن عبد العزيز كلما كتب خطبة تعجبه مزقها مخافة أن يتسلل لنفسه شيء من العجب! رباه غفرانك! ماذا لو اطلعوا على منافسات الإعجابات والمشاركات القائمة اليوم!

لسنا هنا في مقام الحكم على أحد بالعجب أو التباهي -معاذ الله- وإنما غاية الأمر أن استحضار هذه القيم وهذه النماذج سيعفينا أولا من شعور المنافسة على هذه المنصات فلسنا نسابق أحدا. وثانيا -وهو ما نرجوه- أن تكسبنا بعض الحذر واليقظة في التنبه إلى محاولات النفس الدائمة لتحصيل هواها على تلكم المنصات. وإن شئت فتدبر مطلع سورة الشمس وفيها أطول قسم في القران على ماذا أقسم؟ ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا** (9) **وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** 10﴾. ورحم الله من قال: ألا ما أخفى مسارب الشيطان إلى النفس وما أشقاها! ألا ما أشد التواءها وما أدهاها! وإن شئت فقل ألا ما أظهرها وأبينها لمن يراها وما أضعفها عند من كان لله عبدا، وما أهواها!

في بنية المنصات وسيولة القيم.

مما لا يخفى عن النموذج الغربي تقديمه للمادية (الجسد، المال، اللذة) كغاية بحد ذاتها، لهذا تتوافق هذه المنصات معه وتحقق غاياته بسهولة دونما أي شعور لدى متبنيه بالاغتراب أو المسخ، أو تحوله لمهرج سيرك! فهذه المنصات تحقق له الشهرة والتي تجني له الأموال وتشعره باللذة دونما أي تعارض مع "كيف؟"، فمنصات التواصل والذين أوجدوها منتمون لنموذج قيمي مختلف، تفرض علينا هذه المنصات -بشكل أو بآخر- قيما مغايرة وغايات مخادعة، وكنتيجة للسيولة التي أصابت عالم ما بعد الحداثة في مقابل ضعف الهوية عندنا؛ قمنا باستيراد النماذج والقوالب الغربية بسوءاتها، ورحم الله بن خلدون ومقولته الخالدة في المقدمة: «المغلوب مولَع أبدا بالاقتداء بالغالب». فبين التصورين نجدنا نفقد معيار القيم التي تمثلنا وتذوب الحدود يوما بعد يوم حتى صرنا أقرب إلى تبني قيم التصور الغربي بفجاجته دون وعي. وبالمثال يتضح المقال:

بين التصدر والتستر: بينما كانت قيمة الستر قيمة حاضرة عندنا؛ فتستتر المرأة، نستر أمور البيت، نستر عيوبنا وحالنا مع الأهل والأبناء؛ نجد الآن شيوع النقيض وارتضائه! وفي حين كان التصدر ابتلاء واختبار لا مطلبا وغاية. والشهرة ووسيلة لا هدفا، وكنا نقرأ في أخبار السلف الصالح يتواصون بالفرار من الشهرة فرارهم من المجذوم،

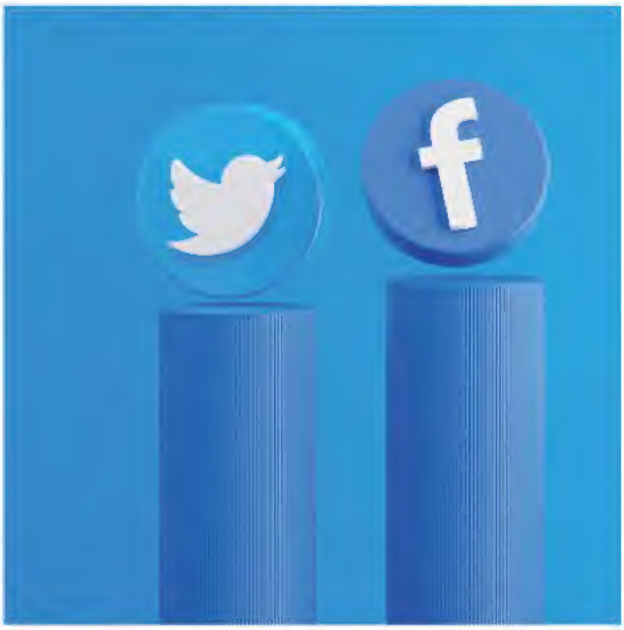

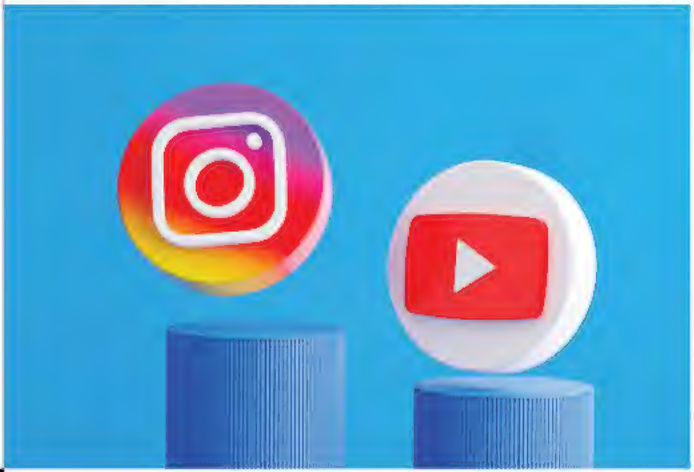

ومـع ذلـك لـم يمنعهـم خوفهـم مـن نشـر الخيـر، بـل ضبطـوا أنفسـهم، فنفعـوا وانتفعـوا وأدوا مـا عليهـم وارتفعـوا، فكانـت شـهرتهم فـي السـماء تسـبق شـهرتهم في أرض الفنـاء. لكـن حيـن يغيـب معيار القيم فلا يُستغرب أن تسود التفاهة في ظل ثقافـة تتيـح دفـع الأمـوال وتمويـل الإعلانـات مـن أجـل التصـدر والاشـتهار. فمجتمعـات تسـود فيهـا قيمـة الماديـة المطلقـة حتمـا سيشـتهر بينهـا الحمقـى والسـفهاء. فشـتان بيـن مـن تحركـه شـهوة الشهرة ومن تدفعه رغبة النفع.

بين الأكثر والأصلح: في حين تُعطى القيمة على هـذه المنصات لمن ينال إعجاب الأكثريه وتـزداد القيمـة طرديـا بزيـادة عـدد المتابعيـن فيصبح الأكثر معيارا للقـدوة ولا عـزاء للأصلح أو الأنفع هنـا! ومـع اختـلاف معياريـة القيـم، ترتفـع موجـة قـدوات الأكثـر فولـوورز والأكثـر حصـدا لللايـكات ويغيـب ويتـوارى الأصلـح، ونظـل نـرى تصـدر قـدوات المهرجانـات الشعبية والمقالب اليوميـة، ويغيب مفهـوم القدوة الصحيحة عن الأجيال الناشئة.

لماذا يجب أن ننتبه وكيف؟

مـع مـا ذكرنـاه سـابقا يصبـح الخـوف حقـا مشـروعا لنـا لأسـباب عـدة، أهمهـا نشـأة جيـل بـلا هويـة. نحـن علـى هـذه المنصات واحـد مـن ثـلاث؛ إمـا مسـتخدم مـدرك وقـادر علـى عـدم الذوبـان (محتفـظ بهويتـه)، أو مستخدم مـدرك وغيـر قـادر علـى مقاومـة الإغـراء، أو مسـتخدم فاقـد للهويـة عـن علـم ورغبـة، وكل هـذا مقبـول، أما الخوف الحقيقي فهو على جيل كامـل قـد ينشـأ فاقـد للهويـة علـى غيـر علـم ولا تصور! وهو ما نرى إرهاصاته بكل أسف.

وأخشى مـا أخشاه، أن نقـع جميعـا فـي شـراك هـذه المنصـات فنبـدو ولا نكـون، نبـدو مثقفيـن ولا نكـون، نبـدو نافعيـن ولا نكـون، نبدو ملتزمين ولا نكون، نبـدو فاعليـن ولا نكـون، نبـدو مؤمنيـن ولا نكـون. تخدعنـا ذواتنـا البراقـة علـى هـذا العالم الافتراضي فتُعمينا عـن خواء الجوهر وهـذا يقـدم لكـم تخوفـي الأخيـر وهـو وهـم النفـع والهـروب مـن الواقـع. فتحقيـق القيمـة والـذات علـى هـذه العوالـم الافتراضيـة أسـهل وأيسـر بينمـا تحقيقهـا في الواقـع يحتاج جهد وتعب وعلم متراكم والنفس تميل إلى الدعة والكسل وواقعنا المقفـر الجـدب خبـر عـن هـروب المجمـوع واختيارهـم العالـم الافتراضي ولله الأمـر من قبل ومن بعد.

قد يبدو من ظاهر المقال أنها دعوة لترك هـذه المنصات، ولكنها ليست دعوة للترك بـل دعـوة للضبـط. وكيـف نتـرك ونحـن مأمورون بالبلاغ! ﴿**قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا**21 **قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا** 22 **إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ**﴾ وهاكم النبي صلى الله عليه وسلم -ولنا فيه أسوة حسنة- يكابد المتاح مـن الوسـائل لتبليـغ دعوتـه.. فكأنـي أرى عنـاء صعـوده لقمـة الجبـل مناديـا فـي النـاس -كل النـاس- بلاغـا وتبليغـا. ولا شك أن هـذه المنصـات بحاجـة إلـى مؤثريـن صالحيـن ومصلحيـن، يقفـون هـم أيضـا ينـادون فـي النـاس داعيـن لقيـم أسـمى ومقدميـن لنموذجـا أصلـح. وإنمـا غايـة المقصـد -فـي نظـري- هـو اسـتصحاب ضابطيـن مهميـن سـيعفياننا مـن الكثيـر مـن مظاهـر هيمنـة وغلبة الاستعراض:

الأول: اسـتحضار قيـم التصـور الاسلامي وتبنيها والتزامها ما أمكن.

والثانـي: فهـم مداخـل النفـس وضـرورة مخالفة الهوى.

وإنما الموفق من وفقه الله، والله نسأل أن يصلـح لنـا أقوالنـا وأعمالنـا، ويكتبنـا عنـده من الصادقين.

لا تفوت يوما دون كتابة

يوسف الدموكي

في أحيان كثيرة، تضيق بي الطرق، وتزدحم عليّ الأفكار، وأجد عقلي مشوشا بالقدر الكافي لصدم الحائط بقبضة يدي، لن ينكسر الحائط، لكني أخسر راحة أصابعي لأسبوع على الأقل، وفوق ذلك لا تنحل عقدتي ولا تنتهي مشكلتي، وأعود أفكر وتتأجج نار الحيرة في رأسي، ماذا أفعل في كذا وكذا؟ لن يكون من المبالغة أن أخبرك بأنني في هذه الحالة لا أرتاح إلا بإحضار ورقةٍ وقلم، أضعهما أمامي، تنساب المشكلات من رأسي إلى القلم، ومن القلم إلى الورقة، ومن الورقة إما إلى الحل، وإما إلى الفراغ، لكنها على كل حال تفرغ رأسي مما يشغلها، وتخفف عن صدري الثقَل الذي يحمله.

أشعر أن في كل قلم وورقةٍ معاونًا خاصا، مدير أعمال، تجلسُ معه فيرتب لك ما اختلط عليك، وينسق لك الأدوار بين الزحام، ويوزع المهمات، ويستبعد الضجيج الذي بلا فائدة، ويقول لك تفضل، هذه أعمالك وأفكارك وواجباتك وجدولك، هذه الأولويات وتلك الثانويات، افعل هذا ولا تفعل هذا، ثم آخذ الورقة في جيبي، وأنطلق إلى ما أراد الله لي.

حتى في الذهاب إلى السوق، في التبضّع من المتجر، في أي مكانٍ، أحتاج إلى أن أرتب أموري قبلها عن طريق معاوني الخاص، الورقة والقلم، ويظن البعض أن "نوت" التليفون تحل عوضا عن ذلك، وهي أسهل في المسح والتعديل والكتابة، لكنني لا أرى فيها الراحة التي أستشعرها وأنا أكتب المهمات، حتى ولو كنت أكتب "كيلو طماطم، كيلو خيار".

وبالعودة إلى طفولتي، أو إلى طفولتنا جميعا، سنجدنا نحفظ القرآن من خلال كتابة "اللوح"، ولا عجب في أن يكون بعد ذلك "لوحاً محفوظا"، حتى أتذكر أن التسميع اليومي على الشيخ ينقسم إلى شقين، "الماضي"، وهو يتعلق بمراجعة ما حفظته سابقا، و"اللوح"، في إشارةٍ إلى المقرر اليوميّ الجديد، وهذا لعلاقته الوثيقة بكتابته على "لوح"، وحفظه على أتم وجه.
وهنا يستطيع المتخصصون إفادتنا أكثر، من ناحية ثبات العلوم بالكتابة، وسهولة تذكرها بعد ذلك، وتنمية ملكة الحفظ، ومن الماضي والحفظ بالكتابة، إلى الحاضر الموجع، فالأطفال كبروا، وانتقلوا من المدرسة إلى الجامعة، ومن الكُتّاب إلى الحياة التي تخلو من "سيّدنا"، وأصبحنا فيها بلا أحدٍ يصحح لنا الأخطاء ويتابع معنا الحفظ، فضلا على أنها حياة لن يقيك منها حفظ ولا فهم، عليك أن تجرب بنفسك.
كبرنا وصارت لكل منا معركته وآلامه، وأصبحت صدورنا مرتعًا للأوجاع، وسرادقاً قائما للعزاء، لا ينفض منه المشيعون أبدا، كل يوم حزن، وكل ساعة فقيد في داخل نفوسنا، وسؤالنا في ذلك: كيف نتجاوز أحزاننا، وكيف نقفز فوق آلامنا، وكيف نرتاح من هذا الذي في داخلنا، يقبض على رقابنا ويقول: موتوا. ونحن لا نريد أن نموت بهذه السهولة.
بحثتُ، وأنا أخمن مسبقًا، كنتُ أراهن على أن في طب النفس شيئا اسمه "العلاج بالكتابة"، ووجدتُه فعلا، لم أبحر في علم يتخصص فيه المجتهدون بعد سنوات، ولا أدّعي أني عالمٌ ولا طبيب، لكن اسألوا أهل العلم، سيقسمون لك على أهمية العلاج بالكتابة.
وبشكل شخصي، لا أعرف كيف كنتُ سأعيشُ من دونها، وكيف سأنزل أحمالي بلا ورقة وقلم، وكيف كنتُ سأعيش أصلا، من غيرها، لا أقول لكم اكتبوا أشياءً عميقة، ولا أشترط عليكم أن تكتبوا كلاما أدبيا منمقا، مجرد الكتابة، بلا شيء آخر، مجرد الدفتر تدوّن فيه، أو الورقة تصب فيها ما بداخلك، بلغتك البسيطة، بلا تكلف، ولا خوفٍ أن يطّلع على ذلك أحد، يمكنك أن تكتب وتكتب وتكتب، دون توقف، ودون تعب، بالعكس، ستجد التعبّ مسكوبًا على الورقة، والعرق منسابا من جسمك، والأفكار متبخرّة في سحابة كثيفة بسقف الغرفة، لا يراها غيرك، لكنك تنظر إليها مبتسما وأنت مطمئن تماما.
كيف نكتب؟ هل تستطيع الكلام؟ اكتب ما تتكلمه، دوّن ما تقوله، يمكنك حتى أن تقول ما تريده بينك وبين نفسك أو بصوتٍ مرتفع، وتزامنا مع ذلك أن تكتب ما قلته، عملية سهلة لا تنفصل عن الكلام العادي، ولا تختلف كثيرا، لكن رؤية ما كتبتَ بعينيك، يوحي بأنك تشاهد عقلك من الداخل، ذلك المكان الغامض فيك، أنت الآن تملك مفتاحه.
وعن تجربة شخصية تماما، أجل، أعيش أوجاعًا كثيرة، وأعاني في معارك خاصة، لكنني في كل مرةٍ أجدني أخفّ وزنا وأصفى صدرا وأنقى روحا، بعدما أفرغ ما بجعبتي داخل دفتري الأزرق، وأتخيل ذلك الدفتر صديقًا ورقيًّا، عبارة عن أذن كبيرةٍ في شكل أوراق وسطور،

أثرثر ويسمعني، أقول كلاما مفهوما وغير مفهوم ويسمعني، أرغو بلا ملل ولا يقول لي اصمت، وإنما كلما أنهيت حديثًا وملأت به الصفحة، فتح لي صفحةً جديدة، وقال لي: "أكمل".

على جانب آخر، بخصوص الكتابة، أحبّ أن أكتب كل يومٍ، أو كلما أتيحت لي الفرصة، ولو مرتين فيِ اليوم، أو مرةً في اليومين، أكتب هذه المرة بغرض التوثيق، بغرض حفظ ما أود حفظه دون أن يضيع، أوثق أنني اليوم بدأت أول عمل لي، أنني الآن أصبحت موظفا، اليوم هو أيٍ يوم للراتب في حياتي، والليلة بتُّ بلا عشاء لأنني لم أعد أملك ما يكفيني لآخر الشهر.

هنا، بين دفتي الدفتر، أضع قلبي، أستودع نفسي، أفضفض بما أكتمه عن مَن حولي، وأجد في ذلك للوحيدين سلوى، وللغريبين أنسا، وللمرتحلين زادًا، وأجدني يومًا ما، في المستقبل القريب أو البعيد أطّلع على ما أكتب، فأتذكر أحوالي، وأرى كيف كنتُ وأين أصبحت، وكيف تتبدل الدنيا وتتغير الظروف، وكيف نكبر، ويكبر ما بين أوراق هذا الدفتر، وأعرف قيمة الصرخات التي صرختها هنا في هذه السطور، بينما الآن أضحك من أعمق نقطةٍ في قلبي.

وأسجل يومياتي، هل سيقرأها أحد؟ لا يهم. هل أحب أصلا أن يراها أحد؟ هذا أمر يعود لي، لكنني في يومٍ ما سأحب أن أقرأ نفسي بنفسي، أن أرىَ أحداث عمري الكبيرة، وتفاصيله الصغيرة، وكل لحظةٍ تفوت ولا تعود، فمن يحفظ لي زماني وعمري وأيامي إن لم أحفظهم أنا؟

أفكر في الأمر من هذه الزاوية، في فكرة أن أعملَ كاتبًا عندي، وأن أشتغل مدونا لي، هل هذا مهم؟ أظن أن الإجابة ستأتيك متأخرًا على كل حال، حين تكبر وتنظر في أيامك فلا ترى إلا ذكريات مشوشة، وتقول يا ليتني كتبت من البداية، وحين تنظر إلى أيامك المهمة وتراهن على ذاكرتك، فلا ترى إلا ضبابًا، ولا تشاهد إلا سرابًا.

وهل مهم حين تكبر أصلا أن تراجع أيامك؟ سل جدك، وسل أباك، وسل كل مَن حولك من الكبار، وأخبرني ماذا قالوا، وراسِلني، قل لي ما إجابات الأسئلة لأنني كذلك أحتاج إليها، لأنني حتى الآن جميعهم يقولون لي: بالعكس، اكتب وواصل الكتابة، في دفترك الخاص، هذا قد يكون كل ما تبقى لك في نهاية عمرك.

ولعل من أجمل ما وجدته حين كبرت، دفترًا في مكتبة أبي، فتحتُ الدفتر، وجدته ليوسف، لي، خصصه أبي لذلك الطفل، يدون فيه حركاته وسكناته، يتابع مراحله ومواقفه، يحكي عن كل شيء كان يمكن أن يُنسى، كان أبي سينسى حين كسرتُ نظارته لأول مرة، وحين جُرحت لأول مرة، وحين مرضت، وأول ما زحفت وأول يوم مشيت، وغيرها، كان ذلك أجمل هديةٍ من أبي، وستظل أجمل هدية، ماذا لو لم يكن يدوّن؟

لماذا أحرص إلى هذا الحد في مقال طويل على فكرة الكتابة "لكل إنسان"؟ وماذا سأستفيد؟ ليس شيئا بالفعل غير أني لا أريد لأحدٍ أن يفوّت نعمةً كهذه من تحت يده، ولا أحبّ أن يأتي الغد ولم تكن كتبت اليوم شيئا، وليس مطلوبا منك أن تكون أديبا لتكتب، ولا كاتبا لتكتب، كما ليست القراءة محصورة على أحد، فأرى بالمثل الكتابة ليست محصورة على أحد بشكل أكبر، فقبل أن أقول لك لا تفوّت يوما دون أن تقرأ، أقول: أرجوك، لا تفوت يومًا دون أن تكتب.

الاختيار: كيف تقتل الدراما ضحايا المذبحة مرة أخرى؟

عبادة البغدادي

"خلال سنين كتيرة من خلال تناول إعلامي لموضوعات تتم في سيناء.. لم تصل للناس بنفس المستوى اللي أنتم قدرتوا توصلوه[1]". كلمات يوجهها السيسي لفريق عمل مسلسل "الاختيار" الذي أنتجته الدولة بميزانية لم يُكشف عنها وسُخِرت لها مقدرات الجيش من سلاح وآليات ومواقع تصوير وملابس وغيرها من العناصر الإنتاجية لتقديم رواية النظام عما يحدث في سيناء. منذ البداية كان السيسي حريصًا على أن يكون الإعلام ناطقًا باسم النظام وروايته الرسمية، بل وعمل منذ البداية على احتكار الإعلام وقطاع السينما، فالنظام الجديد لا يريد إعلامًا مواليا فحسب، ولكنه يريد امتلاك إعلام من المنبع، يربح منه ماديًا ومعنويًا. الإعلام الموجه هو أحد الأعمدة الرئيسية لصناعة وبقاء الأنظمة الديكتاتورية الأبوية، ولا تنجح هذه الأنظمة بالسيطرة على المعلومات وانتشارها إلا من خلال قمع أي إعلام قد يقدم ما يخالف الرواية الرسمية.

الدراما وأثرها على الجماهير:

إن قدرة السينما مخيفة، لأنها تصل إلى العقول والقلوب وتستطيع أن تؤثر فيها وذلك من خلال الصورة وشحنتها الانفعالية، وقدرتها على الإيحاء واستثارة الذكريات فالناس تجد في مشاهدة الفيلم شكلا من أشكال التنوع الذي يساعد على الهروب من نظام الحياة اليومي وكذلك التحرر العاطفي الذي يظهر في تقمص المشاهد لشخصيات الفيلم وشعوره بالتوحد معها. وكما أن السينما تساعد على نشر الحقيقة، فهي أيضا قد تكون أداة في كبت تلك الحقيقة وخلق بعض الصور غير الحقيقية وفي إثارة أحاسيس

[1] https://bit.ly/3swJx7L

خاطئة تجاه قضية ما، ومن هنا تبرز أحد وظائف السينما وهو دورها الدعائي واستخدام النظام السياسي لها بهدف التأثير في الأفراد والجماعات، وخلق رأي عام غير مستنير. فالسينما تتصل بالنظام السياسي إما عن طريق الصدام أو عن طريق التعاون بينهما، خاصة وأن الأفلام السينمائية أصبحت عنصرا من عناصر الضغط على أي نظام سياسي عبر اتصالها بالرأي العام والتعبير عنه، لذلك يضمن النظام المصري سيطرته الكاملة على هذا القطاع من خلال إجراءات احتكار الإنتاج وقوانين الرقابة التي يفرضها لكي يمرر رسائله ويشكل وعي الشعب بما يريد دون السماح بأي أفكار خارج إطاره من مزاحمته في ذلك.[2] ولإدراك النظام بأن السينما من أهم وسائل الاتصال بالجماهير وأخطرها، ودرجة الخطورة تكمن في أن السينما لا تتطلب من مشاهديها مستوى ثقافيا أو فكريا معينا مثلما يتطلبه الكتاب من قارئه، ومن هنا يمكن أن نعتبر السينما أكثر وسائل الاتصال تأثيرا في جمهورها عن طريق الصورة والصوت والكلمة التي تجد طريقها إلى نفس المشاهد دون جهد يبذله، بل من دون وعي خاص بأنه تلقاها وتأثر بها. ويكمن أقوَى أسلحة الدراما تأثيرًا في المستقبل من خلال ضمها لمجموعة من عناصر القوة في التأثير وترتيب أولويات الجمهور ورسم الصورة الذهنية لقائمة اهتماماته وقناعته وتأثره العاطفي وانفعالاته.

العدو وأهميته الدرامية للنظم الاستبدادية:

العدو في نظر النظم الشمولية هو إكسير الحياة، تحرص على استمراره كحرصها على البقاء في السلطة، فبفضل ذلك العدو والذي تعمل الآلة الاعلامية للنظم الديكتاتورية على تضخيمه، تتمكن السلطات الحاكمة من الحفاظ على تماسك الجبهة الداخلية، وحشد الشعب في مواجهته وصرف النظر عن الأزمات التي تواجه الدولة، فضلاً عن تأجيل أي حديث أو مطالبات باحترام حقوق الإنسان أو تطبيق آليات الديمقراطية وتداول السلطة، فجميع تلك الملفات مؤجلة من أجل حسم المعركة مع العدو وهي معركة لا تُحسم أبدًا، ومن أهم العوامل لخلق صورة العدو هي الدراما التي تجعله حاضرًا متمثلًا أمام الجمهور بشكل مستمر.[3] بدأ السيسي مبكرا في خلق عدو غير واضح ومبهم، أسماه "أهل الشر" وهي التسمية التي تكررت في بعض الأعمال الدرامية التي أنتجتها مؤسسات نظامه، وقد تميز أهل الشر الذين يصفهم السيسي بأنهم عدو مجهول وعام، فهم في داخل مصر وخارجها، مصريون معارضون وأجانب، يجمعهم أنهم يعارضون النظام أو ينتقدون سياساته. لذلك فقد حرص السيسي منذ اللحظة الأولى على تجييش الإعلاميين وصناع الدراما للدعاية لما تقوم به الدولة من محاربة

[2] د.سلوى علي إبراهيم الجيار، السينما والسياسة (المكتب العربي للمعارف) ص 10 : 23

[3] ثروت البطاوي، صناعة العدو: خديعة الأنظمة العربية للبقاء والتمدد، موقع رصيف22، الاثنين 19 ديسمبر 2016

"العـدو" وأهـل الشـر كمـا يصفهـم، بـل وتبنـي وجهـات نظـره الشـخصية واقتبـاس كلماتــه فــي كـثـيـر مــن تـلـك الأعـمـال.

إعلام بلسان النظام:

"متوازيـة الفسـاد وحريـة الإعـلام" كانـت دائمـا هـي المعادلـة الأساسـية فـي استراتيجيات النظم المختلفة وعلاقتها مع الإعـلام، ففـي عهـد عبـد الناصـر كان فسـاد المشير عامر وصلاح نصر أكثر اتساعا دون مـردود علـى الدولـة، إلا أن الشـعب لـم يغضـب أو يشـعل ثـورة، كونـه لا يعلـم عنـه شـيئا بسـبب سـيطرة النظـام علـى الإعـلام، وتوجيه الدراما في خدمة سياسته وقبضته الأمنيـة التـي لـم تكـن تسـمح بـأي شـكل مـن أشكال المعارضة. عهد مبارك في المقابل سـمح بقـدر مـن الحريـات الإعلاميـة مـن صحـف وفضائيـات تابعـت كشـف قضايـا الفساد دون رد من النظام بتصحيح المسار أو بتفنيـد الادعـاءات، حتـى تكونـت صـورة شديدة القتامة والسواد في عهد مبارك4، وخصوصا تلك الأعمال التي تناولت فساد وقمـع المؤسسـة الشـرطية والتـي ربمـا يعتقد البعض أنها كانت سببا في إشعال ثـورة ينايـر والتعبيـر عـن الغضـب المكتـوم والمتراكـم نتيجـة حصيلـة الإدراك لفسـاد الدولـة ومؤسسـاتها.في تقريـرٍ لمجلـة الإيكونوميسـت البريطانيـة جـاء وصـف "هــوس" الرئـيـس عـبـد الفـتـاح الـسـيـسـي

و"بدرجـةٍ متطرّفـة، حتـى بالمعاييـر المصريـة" ويشير التقرير كذلك إلى أن السلطة في عهد حسـني مبـارك كانـت تـأذن بتصويـر مسلسـلات وأفـلام الفسـاد وتوحـش الشـرطة، الأمـر الـذي لـم يعـد مُباحـا، بـل صـار مـن غيـر المسـموح تصويـر الفقـر المدقـع، وبـات مطلوبـا إظهـار رجـال الــشـرطـة كـرجـال طـيـبـيـن.[4]

سينرجي والسيطرة على صناعة الدراما:

يـدرك النظـام أهميـة السـينما والفـن فـي التأثيـر علـى المجتمـع، والأفـلام السـينمائية كمـا تؤثـر فـي المجتمـع فإنهـا أيضـا تتأثـر بـه، لذلـك فقـد سـعى النظـام منـذ 2014 إلـى السـيطرة الكاملـة علـى محتـوى العمـل الدرامـي بـل وتـوجيـهـه بمـا يـخـدم صـورتــه

[4] سامي النصف، لماذا حدث ما حدث في مصر؟!، جريدة الأنباء، 14 فبراير 2011

الذهنية التي يسعى لترويجها عن نفسه من خلال إنتاجات تروج لبطولات وأساطير الجيش والشرطة من جانب، أو وضع محاذير وخطوط حمراء في تناول هذه المؤسسات وقائمة للموضوعات التي يجب على الدراما تغطيتها من جانب آخر. وفي ظل تراجع صناعة الدراما المصرية خلال السنوات الماضية، كانت مؤسسات النظام العسكرية والأمنية تقوم بالسيطرة على السوق الدرامي بالكامل بدءا بإجراءات رقابية كإنشاء لجنة الدراما من قبل المجلس الأعلى لتنظيم الإعلام، وكتابة السيناريوهات بالأمر والتوجيهات السيادية، وصولا للسيطرة على القنوات الفضائية، والتي أصبحت معظمها تحت إدارة مجموعة «إعلام المصريين» والتي تمتلك أيضًا شركة «سينرجي» للإنتاج الفني وعلى رأسها تامر مرسي رئيس المجموعة. هذه الخطوة تحولت فيها الصناعة إلى الاحتكار بيد متحكم وحيد في جهات شرائها وعرضها، ويتم ذلك عبر «إعلام المصريين» التي استحوذت عليها شركة «إيجل كابيتال للاستثمارات» وهي صندوق استثمار مباشر مملوك لجهاز المخابرات العامة المصرية الذي يقوده عباس كامل الذراع الأيمن للسيسي والمحرك الأساسي للقوى الناعمة.[3] في 3 أبريل/نيسان 2019، نشرت صحيفة نيويورك تايمز الأميركية مقالا ذكرت فيها أن السيسي يحول سلطته الكاسحة إلى ركن جديد من أركان المجتمع المصري وهي الدراما التلفزيونية التي تقوم على إنتاجها مؤسسات كبيرة في البلاد بميزانيات ضخمة.هذه الدراما يقوم ببطولتها كبار الفنانين المصريين والتي تركز على بطولات رجال الشرطة، وقد ذكر بعض الفنانون أنه تم إجبارهم على تناول الموضوعات التي حازت على موافقة الرقابة العسكرية، مثل تعظيم دور الجيش والشرطة، وذم جماعة الإخوان المسلمين، ومن لا يلتزم منهم بهذه القواعد، فإن أعمالهم لن يتم عرضها على شاشات التلفزيون.[4]

توظيف الدراما السياسية:

ما يسعى إليه النظام في حقيقة الأمر من خلال هذه السيطرة على الدراما وصناعتها يمكن حصره في مجموعة من النقاط:

[5] The economist–How Egyptian entertainment has changed under military rule

[6] عُلم ويُنفذ: رمضان 2019 برعاية إعلام المصريين، مدى مصر، 21 نوفمبر 2018

1- الترويج لصورة ذهنية خاصة بمؤسساته الأمنية ومنتسبيها

من خلال وضع معايير لشكل التناول الخاص برجال الجيش والشرطة، وتقديم أعمال تبرز بطولاتهم -حتى وإن كانت كاذبة- في سبيل رسم صورة لا يمكن المساس بها أو تناولها بالنقد، فهم حماة الوطن من "أهل الشر" ومن يتعرض لهم فهو بذلك يضع نفسه في دائرة الخيانة للوطن.

والواقع أن هذه الصورة التي يقدمها النظام تختبئ خلفها طبقة كاملة من المنتفعين وأصحاب المصالح الذين يعتمد عليهم النظام في تثبيت أركانه من خلال ضمان ولائهم وقمع أي صوت معارض وإسكاته.

2- تقديم روايته الرسمية

قدم النظام روايته الخاصة -وإن خالفت الحقائق المثبتة- بمجموعة من الأعمال الدرامية كمسلسل "الاختيار" الذي حاول تكريس روايته الأمنية عن الصراع الدائر في سيناء، وذلك من خلال توظيف عناصر العمل الدرامي. كما سعى في الوقت ذاته إلى تصوير عناصر الجيش كأساطير متجاهلًا التقارير الحقوقية والتسريبات التي تظهر جرائم ترتكب بحق الأهالي في سيناء.

كذلك فقد سعى من خلال فيلم "السرب" إلى تقديم روايته عن هجومه على مدينة درنة في ليبيا. هذا الاستهداف التي أكدت منظمات حقوقية أن ضحاياه كانت من المدنيين والأطفال7.

ومؤخرا فمسلسل "الاختيار 2" يقدم رواية النظام في أحداث لم تمر عليها سنوات معدودة ولا يزال شهودها أحياء، في قلب واضح للحقائق وتدليس لمجزرة تم بثها على الهواء مباشرة، وهو ما يمكن اعتباره محاولة من النظام لغسل يديه من دماء لم تجف بعد.

في النهاية، سيظل السيسي ونظامه "مهووسا" بصورته التي يسعى لتجميلها، والتي ذكرت تقارير إعلامية استخدامه لشركات علاقات عامة ودفع ملايين الجنيهات من أجل تحسين تلك الصورة، وكما ذكر في أحد لقاءاته مع الفنانين أن أهمية هذه الأعمال هي للأجيال الناشئة والأجيال التي تليها.

قديما كان المنتصرون هم من يكتبون التاريخ، لكن كان هذا قبل اختراع الصورة والبث المباشر الذي لن يتمكن السيسي من محو ما وثقته العدسات وشاهده العالم لحظة حدوثه.

[7] Egypt's Soap Opera Clampdown Extends el-Sisi's Iron Grip to TV

اكتب معنا

يسعدنا أن نثري مجلتنا بنشر مقالاتكم
على أن تتوفر فيها الشروط التالية:

1- أن تكون نتاج جهد بحثي وذات قيمة معرفية للقارئ.
2- وأن يكون الأسلوب واضحاً وشيقاً.
3- وأن تكون مع الهوامش بين 1200-1500 كلمة.
4- وأن تنشر باسم الكاتب الحقيقي.

يمكنكم إرسال مقالاتكم على بريدنا الإلكتروني:
subul.magazine@gmail.com
حيث تقوم هيئة التحرير بتقييم المقالات ونشر ما تراه.
مناسبًا لإطار المجلة والموضوعات المتناولة في كل عدد.

@Subul.magazine

subul.magazine@gmail.com

subulmagazine.com